الباب الحادي عشر

انتشار الإسلام في إفريقية

إن تاريخ الإسلام في إفريقية الذي يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنًا، والذي ينتظم ثلثي هذه القارة الواسعة، بما فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس، ليضع مشاكل بعينها في طريق بحث الموضوع بحثًا منظمًا، إذ يستحيل علينا أن نصور انتشار الإسلام في كافة أرجاء القارة تصويرًا دقيقًا يقوم على نظام تاريخي. وقد عالجنا في فصل سابق الصلة بين انتشار الإسلام وبين الكنائس المسيحية في مصر وبقية إفريقية الشمالية، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبلاد الحبشة؛ أما في هذا الباب فنريد أن نتتبع تقدمه بين الوثنيين في إفريقية الشمالية أولًا، ثم في السودان وعلى طول الساحل الغربي ثانيًا، وأخيرًا على طول الساحل الشرقي ومستعمرة الكاب[1].

وإن ما لدينا من أخبار انتشار الإسلام في الشعوب الوثنية في شمال إفريقية، لا يكاد يزيد إلا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلة التي ذكرناها من قبل عن زوال الكنيسة المسيحية. لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة، ويظهر أن استعمال القوة في تحويلهم إلى الإسلام كان له أثر أكبر مما استخدم في سبيل هذا التحويل من وسائل الإقناع والترغيب. فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة، ثاروا على الدين كما ثاروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم، حتى ليقرر المؤرخون العرب أن مرات ارتدادهم عن الدين بلغت اثنتي عشرة مرة[2].

وفي تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر، إشارات قليلة بسيطة عن دخول الأخيرين في الإسلام. ويظهر أن إسلام البربر في بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه علمهم

---

(1) وهنالك خريطة نفيسة تبين توسع الإسلام في إفريقية، في مجلة "The International Review of Missions," vol. i. p. 652

(2) Fournel, vol. i. p. 271.

بأنه لا فائدة من التمادي في مقاومة الجيوش العربية. فحين وقف البربر في وجه الغزاة سنة ٧٣٠ آخر وقفة لهم، تنبأت الكاهنة[١]، وكانت نبيتهم، وزعيمتهم المقدامة، أن النصر سيتحول عنهم. وأرسلت أبناءها إلى معسكر القائد العربي، وأوصتهم بأن يسلموا ويقفوا في صف الأعداء. أما هي فقد اختارت لنفسها أن تموت وهي تحارب في جانب مواطنيها في المعركة الكبرى التي حطمت قوة البربر السياسية، وأخضعت إفريقية الشمالية للعرب. وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم البربر اثنى عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربي، وتكون من هؤلاء البربر جيشان، وضع كل منهما تحت إمرة واحدة من أبناء الكاهنة[٢]. وبتلك الحيلة، تعني إدخال البربر في جيوش العرب، أمل قواد المسلمين أن يدخلوهم في الإسلام، وذلك بأن يطعموهم في الغنائم.

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر، والذي أبحر من إفريقية سنة ٧١١م ليفتح إسبانيا بقيادة طارق (وكان هو نفسه بربريًا)، يتألف من أشخاص كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثًا. وقيل إن دخولهم في الإسلام كان عن يقين ثابت. وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب، ليقرءوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم. ويعلموهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات[٣].

وأظهر موسى فاتح إفريقية العظيم، حماسة نحو إعلاء شأن الإسلام، بأن خصص جزءًا كبيرًا من المال الذي كان يعطيه إياه الخليفة عبد الملك، ليشتري أمثال هؤلاء الأسرى إذا ما تعهدوا بأن يظهروا أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء أوفياء للإسلام. "فكان كلما وجد عددًا من الرقيق، معروضًا للبيع، عقب أي انتصار، اشترى كل الذي يظن أنهم سيعتقدون الإسلام راغبين، والذين كانوا من أصل كريم، والذين يظهرون، إلى جانب ذلك، بمظهر الشباب العامل النشيط. وكان أول الأمر يعرض على هؤلاء أن يعتقدوا الإسلام، فإذا ما تحولوا إلى خير الأديان، بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق

---

(١) واسمها الحقيقي غير معروف (م – ٣٤)

(٢) Fournel, vol. i. p. 224

(٣) المقري جـ١ ص٢٥٣.

السامية، وكان تحولهم إليه صادقًا، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم، فإذا أثبتوا استعدادًا ومواهب طيبة أعتقهم في الحال، وعينهم في مراكز مهمة في جيشه، ورقاهم حسب كفاياتهم؛ وإذا كان العكس ولم يظهروا صلاحية في أعمالهم، أعادهم إلى مستودع الأسرى العام التابع للجيش، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم، وهي أن ينتزعوا بالسهام ما فيهم من فساد"[١].

أم معرفة إلى أي حد كان إسلام البربر سطحيًا، فيمكن أن نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبد العزيز الورع في سنة ١٠٠هـ (٧١٨م) إسماعيل عبد الله واليًا على شمال إفريقية، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت أنهم كانوا يعلمون أن دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر. ويقال إن هذا الوالي الجديد أظهر نشاطًا عظيمًا في دعوة البربر إلى قبول الإسلام، ولكن الحكم بأن جهوده كللت بالنجاح، بحيث لم يبق واحد من البربر لم يدخل الإسلام، حكم لا شك غير صحيح[٢].

وذلك لأن تحويل البربر إلى الإسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة؛ بل إنهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية[٣]. ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية، وأصبح مرتبطًا بتولي دول البربر الحكم، تلك الدول التي دخلت في عهدها كثير من البربر في حظيرة الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزًا على ضياع الاستقلال السياسي.

أما عن التغييرات المختلفة التي طرأت على حالة البربر السياسية، فليس هنا مجال الحديث عنها؛ ولكن الذي يستحق أن نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، هو

---

(١) المقري جـ١ (p. lxv.)

(٢) Fournel, vol. i. p. 270.

(٣) وللوقوف على ذلك وعلى حركات الهرطقة التي كشفت عن بقايا الدين البربري القديم، انظر:
Goldziher, Materialen zur Kenntniss der Almohadenbewegung in Nordafrika (ZDMG, vol. xli, p. 37)

ظهور المرابطين، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددًا كبيرًا من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية.

وفي مستهل القرن الحادي عشر الميلادي نجد يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة، إحدى قبائل الصحراء، يبحث في المراكز الدينية في إفريقية الشمالية، في أثناء عودته من حج بيت الله بمكة، عن معلم تقي متفقه، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة المظلمين داعيًا إلى الإسلام؛ فوجد في أول الأمر أن من العسير أن يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمي ويستهين بمخاطر الصحراء، ولكنه أخيرًا وجد في عبد الله بن ياسين الشخص الذي يليق لهذا العمل، إذ كان فيه من الإقدام ما يكفي للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة، وكان تقيًا زاهدًا في حياته، متفقهًا في الدين والشريعة وغيرها من العلوم.

وإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادي وجدنا أن دعاة الإسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء، وأقروا فيهم دين النبي، ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول إلا قليلًا. وقد وجد عبد الله بن ياسين أنه حتى الذين أقروا بالإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالًا شديدًا، ويستسلمون لكل ألوان العادات المرذولة. فكرس نفسه، متحمسًا، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وتفقيهم في أمور دينهم؛ ولكن العنف الذي زجرهم به عن رذائلهم، وحاول بواسطته أن يصلح سلوكهم، حوّل عواطفهم عنه، فدفعه في الغالب إخفاقه في رسالته إلى أن يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان إلى الإسلام. ولما استُحث على ألا يترك عملًا كان قد زاوله من قبل، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ، إلى جزيرة في نهر السنغال، حيث بنوا بها رباطًا أسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة. أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعدادًا للتدين، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم في الرذيلة التي أخرجت معلمهم المتدين من بينهم، لجأوا خاضعين إلى جزيرته يلتمسون منه العفو، ويتلقون تعاليمه في حقائق الدين المخلصة. وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك يومًا بعد يوم جماعة من تلاميذه أخذت في النماء، وكانت على الأخص من لمتونة وهي فخذ من قبيلة صنهاجة، أخذت أخيرًا في الزيادة حتى بلغت حوالي ألف شخص. ورأى بعد ذلك عبد الله بن ياسين أن الوقت قد حان للخروج إلى

محيط أوسع للعمل، فطلب إلى أتباعه أن يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذي أنعم عليهم به، وذلك بأن ينقلوا العلم به إلى غيرهم من الناس:

"اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته. فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا".

ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته فوعظهم أن يتوبوا ويصدقوا، ولكنهم لم ينجحوا في هذه السبيل: وكذلك أخفقت جهود عبد الله بن ياسين نفسه، الذي ترك رابطته لعله يجد رؤساء البربر في ذلك الوقت أقوى رغبة في الإصغاء لدعوته. وأخيرًا، قاد أتباعه في سنة ١٠٤٢م، الذين سماهم بالمرابطين – وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهي الرباط[١] أي الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال – وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم على قبول الإسلام.

وقد بدا لقبائل الصحراء، أن النجاح الذي حالف ابن ياسين في غاراته الحربية، كان حجة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه، وسرعان ما تقدموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة. ومات عبد الله بن ياسين في سنة ١٠٥٩، ولكن الحركة التي كان قد بدأها لم تمت بموته، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد في جموع أبناء وطنهم المسلمين، واعتقدوا الإسلام على أنه القضية التي كافحوا من أجلها، وتدفقوا من الصحراء على إفريقية الشمالية، ثم فرضوا سيادتهم آخر الأمر على إسبانيا كذلك[٢].

ولا يبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر، وأعني بها

---

(١) وللوقوف على هذه الكلمة انظر:

Doutte, Notes sur L,Islam maghribin. (Revue de l,histoire des religions, tom. Xli. P. 24 – 6)

(٢) ابن أبي زرع ص١٦٨ – ١٧٣ A. Muller, vol. ii, pp. 611 - 13

ظهور الموحدين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين. وقد قرب ابن تومرت، مؤسس دولة الموحدين، إلى العامة عقائد هذه الطائفة في التوحيد، وهي التي تمسكوا بها، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية، من وجهة نظره الخاصة، كما أتاح للقومية البربرية امتيازًا أبعد من هذا، إذ أمر بأن يكون أذان الصلاة باللغة البربرية[١].

ومع هذا، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر[٢] الميلادي، إلا أن الاتجاه العام كان بطبيعة الحال سائرًا نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى في الجماعات الإسلامية الكبرى، وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشأة حركة نشيطة، في نشر تعاليم الدعوة في بلاد المغرب، كانت ترجع إلى رد الفعل الذي أحدثته انتصارات المسيحيين في إسبانيا وإفريقية الشمالية. وقد أمدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوي، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط في جنوب مراكش ليقوموا بحملة إرشاد سلمية في كافة أنحاء بلاد المغرب، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر إيمانهم، ومحولين إلى الإسلام جيرانهم من الوثنيين[٣].

وقام اللاجئون من إسبانيا بنصيبهم في حركة نشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام هذه – كما أشرنا إلى ذلك من قبل – إذ جاءوا لمساعدة الشرفاء أو أبناء إدريس بن عبد الله، الذين كانوا قد فروا إلى مراكش هربًا من غضب هارون الرشيد[٤]. ومن الصحراء الكبرى، ذاعت معرفة الناس بالإسلام أول الأمر بين زنوج السودان. ويكتنف الغموض تاريخ هذه الحركة القديم، ولكن يظهر أن هناك شيئًا من الشك في أن البربر هم أول من أدخل الإسلام في البلاد التي يرويها نهرا السنغال والنيجر، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان

---

(١) ابن أبي زرع ص ٢٥٠ Goldziher, p. 71

(٢) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. p. 11)

(٣) Doutte, xl. P. 354; xli. Pp. 26 – 7.

(٤) Depont et Coppolani, p. 127 sq.

بعضها (مثل غانه Ghana وسنغاي Sonhgay) عريقا في القدم[١].

وكانت القبليتان البربريتان لمتونة وجداله اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستهما الدينية في تحويل الناس إلى الإسلام[٢]، وبجهودهم أثرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية. وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢م) وثاني أمراء دولة المرابطين، حافلًا جدًا بدخول الناس في الإسلام. وأخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادئ مُحَمَّد[٣]. وفي سنة ١٠٧٦م طرد البربر – الذين ظلوا وقتًا ما ينشرون الإسلام في مملكة غانة – الأسرة الحاكمة التي يحتمل أنها كانت أسرة فلبي Fulbe، وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها؛ وفي القرن الثالث عشر الميلادي فقدت استقلالها واحتلها المندنجو Mandingos[٤].

أما عن دخول الإسلام في مملكة سنغاي Songhay القديمة، التي يقال إنها وجدت في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٧٠٠م، فلم يذكر لنا إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسي Za-Kassi، وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا، وقد أسلم في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩ – ١٠١٠م)، واصطلح على تسميته في لغة سنغاي باسم مسلم دام Muslim-dam. ويدل هذا الاسم على أنه دان بالإسلام بمحض إرادته لا عن طريق الإرغام، ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه[٥].

وفي هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدر لهما في القرون المتعاقبة أن تؤثرا تأثيرًا قويًا في تقدم الإسلام في السودان الغربي – إحداهما مدينة جني

---

(١) لا مجال هنا لتناول نشأة التاريخ السياسي للممالك المختلفة من السودان الغربي؛ وقد بحثت هذا الموضوع ليدي لوجارد Lady Lugard، وهو مؤلف على نحو أكثر ملاءمة للقراء الإنجليز وذلك في كتاب عنوانه:
"A Tropical Dependency. An Outline of the Ancient History of the Western Sudan, with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria" (London, 1905)
وانظر أيضًا: H. F. Helmolt: The World's History, vol. iii. Chap. Ix. (London, 1903)

(٢) Biau, p. 322.

(٣) Leo Africanus. (Ramusio, tom. i. pp. 7, 77)

(٤) Meyer, p. 91.

(٥) تاريخ السودان ص٣.

Genne[1] التي تأسست سنة ٤٣٥هـ، (١٠٤٣ – ١٠٤٤م) [2]، والتي قدر لها أن تصبح مركزًا تجاريًا مهما، والأخرى مدينة تمبكتو Timbuktu وهي مركز مهم لتجارة القوافل مع الشمال، وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠م. وقد أسلم كنبرو Kunburu ملك جنى حول نهاية القرن السادس الهجري (أي حول سنة ١٢٠٠م)، فحذا حذوه سكان المدينة، ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء في مملكته، وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالمًا (ومهما يكن هذا العدد مبالغًا فيه فإن الرواية تبين لنا فيما يظهر أن الإسلام تقدم تقدمًا عظيمًا في البلاد التابعة لهذا الملك). ثم طلب إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله كي ينصر مدينته، ومن بعدها هدم قصره وبنى في مكانه[3] مسجدًا عظيمًا[4]. وكانت تمبكو إلى جانب شهرتها بالتجارة، مدينة إسلامية منذ البداية، "ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن[5]". وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمركز للتعاليم الإسلامية والتقوى، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية.

وقد أثنى ابن بطوطه – الذي تنقل في هذه البلاد في أواسط القرن الرابع عشر – على الزنوج لحماستهم في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن، ويخبرنا هذا الرحالة أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام[6].

وفي عصره كانت أقوى ولاية في السودان الغربي هي ولاية ملى Melle أو مالي Malli، وكان أمرها قد علا قبل ذلك بقرن، بعد فتح غانة على أيدي المندنجو، وهم من

---

(1) ويقال لها جنى أو دينية.

(2) ويتبع مير Meyer رأي بارت Barth؛ ويضع تاريخ السودان (ص١٢) تاريخ هذه المدينة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

(3) ويورد فليكس دوبرا Felix Dubois فكرة عن هذا المسجد وعن إعادة بنائه، وكان قد خربته جماعة شيخو أحمد حول سنة ١٨٣٠، وذلك في بحثه: Tombouctou la mysterieuse chap. Ix.

(4) تاريخ السودان ص١٢ – ١٣.

(5) نفس المرجع ص٢١.

(6) ابن بطوطة جـ٤ ص٤٢١ – ٤٢٢.

أعظم أجناس إفريقية رقيًا: ويذكر عنهم ليو الإفريقي Leo Africanus[١] أنهم أكثر جميع الزنوج مدنية وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم[٢]. وكان هؤلاء المندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم[٣].

وكما جاء في تاريخ كنو Kano Chronicle كانت قبائل المندنجو هي التي عرفت قبائل الحوصة Hausa بالإسلام، وليس تاريخ ذلك محققًا[٤]، كما هو الشأن في معظم التواريخ المتصلة بتاريخ ولايات قبائل الحوصة؛ وذلك لأن قبائل فلبي Fulbe، التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، أتلفت معظم سجلاتها التاريخية. ولكن أهمية اعتناق الحوصة للإسلام لا يمكن أن نبالغ فيها؛ فهم أصحاب نشاط وذكاء، وقد أكسبتهم مهارتهم الفائقة في التجارة نفوذًا كبيرًا بين شتى القبائل التي اتصلت بهم، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي. وحيثما ذهب تجار الحوصة – وهم منتشرون من ساحل غينيا Guinea حتى القاهرة – نقلوا معهم الدين الإسلامي. وسنتحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة الإسلامية.

أما فيما يتعلق باعتناق الحوصة أنفسهم هذا الدين فإن الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام[٥]، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع،

---

(١) Ramusio, tom. i. p. 78.

(٢) ويصفهم ونوود ريد Winwood Reade بأنهم شعب طويل القامة، حسن المنظر مشرق اللون، مسلمون متدينون، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة؛ ولكنهم أيضًا يزرعون القطن، والفول السوداني، وأنواعًا مختلفة من الغلال. وقد سررت كثيرًا بلطفهم، وسجاياهم الكريمة، ومظهر نسائهم الجاد المحتشم، ونظافة قراهم وهدوئها.
(W. Winwood Reade: African Sketchbook, vol. i. p. 303)

(٣) Waitz, 11er Theil, pp. 18 – 19.

(٤) ويضع بالمر (ص٥٩) دخول الإسلام إلى كنو بين سنتي ١٣٤٩، ١٣٨٥، وتضع رواية أخرى من تواريخ الحوصة بداية عهد أول ملوك زوزو من المسلمين حول سنة ١٤٥٦. (Journal of the African Societv, vol.ix. p. 161)

(٥) وكما في سائر جهات العالم الإسلامي، تضع الرواية أول دخول الإسلام في عهد المؤسس، وتذكر اسم الفزاري، أحد صحابة النبي المشهورين، باعتباره رسولًا إلى شعب الحوصة. J. Lippert, Sudanica. MSOS, iii. Part 3, p. 204. (Berlin, 1900)

وملحقاتها[١]؛ ويظهر أن أحد دعاة الإسلام الذين بعثوا إلى كنو Kano وكتزنا Katsena كان بلا شك أستاذًا مثقفًا ورعًا، وكان من تلمسان، ذلك هو مُحَمَّد بن عبد الكريم ين مُحَمَّد المجيلي، الذي نبغ حول سنة ١٥٠٠م[٢]. ومن الممكن أن تكون الحوصة قد تأثرت في إسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الإسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي[٣].

ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إلى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١. ولكن من المحتمل أنه كان هناك أيضًا ألوان من النفوذ الإسلامي، وقد أتى هذا النفوذ من الشمال الشرقي وتطرق إلى إفريقية الوسطى، ومن مصر انتشر حتى دخل كانم Kanem، وهي مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة تشاد؛ وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام بقليل أصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة.

ويقال أن أول ملوك كانم Kanem من المسلمين حكم إما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر[٤] الميلادي. ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الإسلام من الشمال الشرقي أندر حتى من تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي. وإن مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات إلى الإسلام وتأسيس دول إسلامية، لا يمدنا إلا بأخبار قليلة، ولكن حقيقية واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخي الهزيل، تلك هي البطء الشديد

---

(١) وللوقوف على أنواع هذه الولايات المختلفة انظر Meyer, p. 27

(٢) Mischlich& Lippert, pp. 138 – 9.

(٣) Meyer, loc. Cit. ويضع أرتين باشا (ص٦٢) بداية تدفق العرب المسلمين في عهد مبكر يرجع إلى القرن الثامن.

(٤) Becker, Geschichte des ostlichen Sudan, p. 162 – 3. Blau, p. 322. Oppel, p. 289. وفي نهاية القرن الرابع عشر، نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلى غرب بحيرة تشاد في منطقة برنو، وهي التي أصبح اسم مملكة كانم معروفًا بها منذ ذلك الحين.

في تحول الناس هناك إلى الإسلام.

وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الفتش[$] يعيشون في الأقاليم التي مرت عليها قرون وهي تحت الحكم الإسلامي، ليدلنا فيما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصورًا في المدن طويلًا، ولم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجيًا. والواقع أن النفوذ الإسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التي جعلت جماعة البمبارا **Bambara** الوثنية يحتفظون بوثنيتهم، مع أنهم (وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين.

وقد حاول مرابط يدعى عُمَرو كبا **Umaru Kaba**، أن يحول البمبارا إلى الإسلام فأخفق، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين. وقد أسس هذا الرجل جمعية إخوان دينية جديدة، كانت على صلة بالقادرية، فلما أخفق في جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين، وحاول أن يدخلهم في الإسلام ويضمهم إلى جماعته. ويظهر أنه كان في طريقه إلى النجاح، وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية في ولاية سنسندنج **Sansanding**، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعي خارج حدود ولايته، وأمر من دخلوا حديثًا في الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة[1].

وحيثما كان التزاوج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا التزاوج، كان الاندماج في المسلمين يسير سيرًا منتظمًا، وإن ذلك مضافًا إليه ما كان هناك من نشاط في الدعوة قامت به تلك القبائل – وهي فلبي والحوصة والمندنجو – التي امتازت بحماستها في سبيل دينها، كان يساعد على نمو المجتمع الإسلامي لو لم تكن تلك الحروب الطاحنة التي جعلت كل دويلة إسلامية تخرب الأخرى. فنهضت قبيلة ملى **Malle** على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادي وحطمت سنغاي غانة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وخُربت سنغاي بدورها بعد ذلك بقرن على أيدي العرب.

[$] الفتش كناية عن الأصنام التي كان الزنوج والقبائل المتبربرة يعبدونها.

(1) **Maurice Delafosse p. 87.**

ولما دالت هذه الدول الإسلامية من جراء المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحرب في السودان، استردت الديانة الفتشية كثيرًا من مكانتها التي كانت قد فقدتها؛ وكما كان الحال في المسيحية، كان ذلك في العالم الإسلامي، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة إلى ردك منحط، ورضي المسلمون في بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التي كانت تكتنفهم دون أن يمسها أي نشاط في نشر تعاليم الإسلام.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي هاجر عرب التنجار **Tunjar Arabe** من تونس إلى الجنوب، واخترقوا بورنو **Bornu** ووداي **Wadai** حتى وصلوا إلى دارفور، وجاء غيرهم من الشرق فيما بعد[1]. وقد لقي أحدهم ويدعى أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي تعلق به فجعله مشرفًا على شئون بيته واستشاره في كل المناسبات. وإن خبرته بأساليب حكم كانت أرقى تحضرًا، من تلك التي كانت في دارفور، مكنته من أن يدخل عدة إصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصادية وعلى حكومة الدولة. ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين، وقسم الأراضي بين فقراء السكان ليضع حدًا للإغارات الداخلية، وبذلك أدخل على المملكة شعورًا بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل. ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد، وعينه خليفة له، وقد أيد هذا الاختيار أن الناس ضجت باستحسانه.

واستمرت هذه الدولة الإسلامية، التي تأسست على هذا النحو، حتى القرن الحاضر، وكانت أسباب الحضارة التي أحدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنت من غير شك ببعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة، ولكن يظهر أن هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا إلا جهدًا يسيرًا جدًا في سبيل نشر دينهم بين جيرانهم الوثنيين. ومن المؤكد أن دارفور لم تدخل في الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان، وقد بدأ حكمه سنة ١٥٩٦[2]، ولم ترسخ قدم الإسلام في الممالك الأخرى، الواقعة بين كردفان وبحيرة تشاد

---

(١) Becker: Geschichte des ostlichen Sudan, pp. 161 – 2.

(٢) R. C. Slatin Pasha: Fire and Sword in the Sudan, pp. 38, 40 – 2. (London, 1896).

كوادي وباغرمي، إلا في القرن السادس عشر. ولكن مملكة وداي كانت المركز الرئيس للنفوذ الإسلامي في ذلك الوقت، وقد أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢م، ولم تسلم عامة باغرمي إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[١].

ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جدًا، بل لا أهمية له إطلاقًا إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر. وكان مسلمو إفريقية في حاجة إلى مؤثر قوي يوقظ عزائمهم الخاملة؛ فقد كانت حالتهم في القرن الثامن عشر، فيما يظهر، حالة فتور ديني تقريبًا، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر؛ ومن هنا جاء ما نصادفه في الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التي تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزنوج، تلك الأخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التي سردناها من قبل، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال مهمة في الدعوة وتقدمها.

وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفلبي[٢] رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو[٣]، عرف بأنه مصلح ديني وداعية محارب. وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعاد من هناك مليئًا بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة للإسلام. وتأثر بمبادئ الوهابيين، الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار فيه مكة، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الأولياء، واستنكر المبالغة في تمجيد مُحَمَّد نفسه؛ وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان، هما شرب الخمر وفساد الخلق.

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلبي تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية؛ وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام في وقت مبكر، وكانت لاتزال حتى ذلك

---

(١) Westermann, p. 628.

(٢) الفلبي (مفردها بول) اسم اطلقه هذا الشعب على نفسه؛ ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربو على المائة، أشهرها فلا وفلاني (Meyer, p. 28)

(٣) Oppel, p. 292. Meyer, pp. 36 – 7. Westermann, pp. 629 – 30. (م – ٣٥)

الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع في مختلف بقاع السودان. وإن ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر، ليصورهم لنا في صورة أناس مسلمين، نشيطين في أعمالهم؛ ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا[1] موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١، فيقول:

"في كل دولة أو بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء، يدعون الفولز (أي الفلبي)، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم، ولأن القرآن، وهو أيضًا شريعتهم، مكتوب بهذه اللغة. وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوروبا باللاتينية، إذ أن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولي. ويعيشون قبائل أو عشائر، ويبنون لأنفسهم مدنًا، ولا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك؛ وذلك لأنهم كانوا إذا أسيء إليهم، في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين. ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكمًا معتدلًا إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد. وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه في سهولة ويسر، لأن الأهالي أصحاب طبيعة هادئة، ولأنهم تعلموا جيدًا ما هو عدل وما هو حق، حتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعًا لكره الجميع... وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم، ويبيعونه بسعر معتدل، ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلد فولي؛ وفوق هذا أكسبهم سلوكهم حدًا من الشهرة يجعل من العار أن يعاملهم أحد معاملة غير كريمة. ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس، فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعفة؛ وإذا علموا أن أي فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقًا اتحد الفلبي جميعًا وحرروه. ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدًا واحدًا منهم يقاسي الحاجة؛ بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين. وقلما يغضبون، ولم أسمع مطلقًا واحدًا منهم

(١) Francis Moore, pp. 75 – 7.

يسب الآخر؛ ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة إلى الشجاعة، إذ أنهم شجعان كأي شعب في إفريقية، وهم مهرة جدًا في استعمال أسلحتهم، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات واليطغانات القصيرة، والقوس والنشاب، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان... وهم مسلمون متمسكون بدينهم، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أي مشروب أقوى تأثيرًا من الماء".

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة، المتناثرة في شتى أقاليم الحوصة، وجعل منهم جماعة قوية. وفي سنة ١٨٠٢ حدثت أول ثورة ممن مملكة جوبر التي كانت لاتزال على الوثنية، والتي بسطت نفوذها على الشمال الأقصى من بلاد الحوصة؛ وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلبي المتزايدة في بلاده، فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة؛ وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوي، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها عقيدة النبي، بل تعرض أيضًالا لولايات الحوصة الإسلامية؛ فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى، وأصبحت كل أراضي الحوصة تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦. ولايزال قبره في سوكوتو Sokoto مثابة تعظيم جموع كثيرة من زواره. وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه، اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلبي؛ وتعين مدينة أدماوا، التي أسست سنة ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية، حدود فتوحاتهم تجاه الشرق.

وكانت مدينة إلورن Ilorin، في بلاد يوروبا Yoruba، التي تأسست في عهد نفديو، هي الحد الجنوبي الغربي لإمبراطورية بول Pul. وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع في أيدي الفلبي، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة الى الإسلام، حتى قامت الإدارة البريطانية في نيجريا سنة ١٩٠٠.

وكان دخول القانون والنظام في نيجريا الجنوبية في مصلحة الدعوة إلى الإسلام كما كان الحال في جهات إفريقية الأخرى التي أصبحت تحت الحكم الأوروبي. فاستطاع

مسلمو الحوصة، الذين ينتسب بعضهم إلى طائفة التيجانية، أن يتنقلوا في البلاد بحرية، وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التي كانت حتى ذلك الحين تمنع، في تعصب وصلابة، تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها.

ويقال إن الإسلام في مملكة يوروبا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة. وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد، في وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي ولكن هذه المحاولة لم تنجح؛ كان هذا الرجل من الحوصة جاء إلى إيفي Ife، حاضرة مملكة يوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويقرأ لهم آيات من القرآن، وكان لا يستطيع أن يتكلم بلغة يوروبا إلا كلامًا ركيكًا غير صحيح، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله "هلم نعبد الله الذي خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء وخلقنا". وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام، وقد مات بعد وصوله إلى إيفي بأشهر قليلة. وبعد موته وجدوا القرآن معلقًا على مشجب في حائط حجرته فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه من دين الفتش[١].

وحيث أخفق داعية هذا الدين، القديم، نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحًا رائعًا. وفي فترة الفوضى التي سبقت الاحتلال البريطاني كانت غالبية المسلمين في مدن كبيرة تكتنفها الأسوار، ولكنهم يستطيعون في ظل الطمأنينة والأمن الجديد أن يستقروا في القرى، على مقربة من أعمالهم الزراعية. وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الإسلام يزداد اتساعًا في هذه البلاد. وكما كانت الحال في إفريقية الألمانية الشرقية، نجد أن وجود مسلمين بين جيوش هذه البلاد قد ساعد على انتشار دينهم، فكان المحدثون من الجنود يدينون في الغالب بالإسلام كي يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم[٢]. وكذلك نلحظ في مملكة إيجيبو Ijebu في نيجريا الجنوبية، حركة حديثة جدًا للدعوة إلى الإسلام؛

---

(١) R. E. Dennett: Nigerian Studies, pp. 12, 75. (London, 1910).

(٢) Islam and Mission, pp. 71 – 3. The Moslem World, pp. 296 – 351.

على أن الإسلام لم يدخل في هذا الجزء من نيجريا إلا في سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجدًا وأخرى بها اثنا عشر مسجدًا[١].

ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجريا الجنوبية بوجه خاص؛ ويقرر أحد مبشري المسيحيين ما يأتي: "عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل إده Iddah[٢]؛ ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ما عدا أسفل أبو Abo، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلحظها في تقدم الإسلام، سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر في سنة ١٩١٠"[٣].

وهكذا كان في هذا الجزء من إفريقية نشاط كبير في الدعوة إلى الإسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام في سبيل تحقيق غايتهم، أعني بذلك تحويل الوثنيين إلى الإسلام. وعلى هذا الأسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادئ الدينية الإسلامية الجليلة، تلك المبادئ التي كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الديني في إفريقية الشمالية. وقد حققت جهود دعاة الإسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيرًا من أعمالهم لا شك أنها لم تدون قط، لا يزال لدينا أخبار عن بعض الحركات التي بدأها هؤلاء الدعاة.

ومن أسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها إلى سي أحمد بن إدريس[٤]، الذي كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٨٣٣، وكان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية، وقد أرسل قبل موته سنة ١٨٣٥ أحد أتباعه، ويدعى مُحَمَّد عثمان الأمير غني، في رحلة إلى إفريقية لنشر تعاليم الإسلام. ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير، شق طريقه حتى بلغ النيل. وهنا بين جماعات إسلامية انحصرت جهوده بصفة

---

(١) Church Missionary Review (1908, p. 640)

(٢) بلدة على النيجر، جنوبي الحدود الشمالية لنيجريا الجنوبية.

(٣) Church Missionary Society Intelligencer (1902), p. 353.

(٤) Rinn, pp. 403-4

خاصة في ضم أعضاء إلى الطائفة التي كان ينتسب إليها؛ ولكنه لم يصادف في رحلته إلى أعالي النهر نجاحًا كبيرًا حتى وصل إلى أسوان، ونجحت رحلته من أسوان حتى دنقله نجاحًا تامًا؛ وقد أسرع الثوبيون إلى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب إليها مُحَمَّد عثمان هذا، وأثرت في هؤلاء الناس تلك الأبهة الملكية التي كانت تحيط به تأثيرًا فعالًا، كما جذبت إليه كراماته في نفس الوقت عددًا كبيرًا من الأتباع.

وفي دنقلة ترك مُحَمَّد عثمان وادي النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمنًا طويلًا، وهنا بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار. وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية؛ وقد نجحت دعوة مُحَمَّد عثمان بين هؤلاء القوم نجاحًا رائعًا جدًا، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج ببضع زوجات منهم، فتولى نسله منهن بعد أن مات في سنة ١٨٥٣، نشاط الطائفة التي أسسها وتسموا أمير غنية[١] نسبة إليه.

وقبل أن يقوم مُحَمَّد عثمان برحلته، التي دعا فيها إلى الإسلام بسنين قلائل، كانت جنود مُحَمَّد علي باشا، قد أخذت توسع من فتوحاتها في السودان الشرقي، وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية العديدة في مصر على القيام بدعاية في هذه البلاد التي عرفوها حديثًا، عسى أن تساعد أعمالهم على تهدئة الحال في هذه البلاد، فواصلوا نشر الدعوة في تلك الأراضي التي استولوا عليها حديثًا حيث قاموا بأعمال صادفت نجاحًا كبيرًا، حتى إن ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدي قد عزيت إلى الحماسة الدينية التي أثارتها دعوتهم[٢].

وفي غرب إفريقية كانت هناك جماعتان تساعدان بنوع خاص على نشر الإسلام، هما القادرية والتيجانية. وقد تأسست الأولى، وهي أوسع الجماعات الدينية الإسلامية انتشارًا، في القرن الثاني عشر على يد عبد القادر الجيلاني، ويقال إنه كان أشهر أولياء

---

(١) Le Chatelier (1), pp. 231-3.

(٢) Le Chatelier (2), pp. 89-91.

المسلمين كافة وأعظمهم هيبة[١]، ودخلت القادرية في إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجرين من توات Tuat، وهي واحة في الشطر الغربي من الصحراء؛ فاتخذوا من ولتا Walata أول مركز لطريقتهم، ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد، فلجئوا إلى تمبكتو في جهة نائية شرق ولتا.

وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيرًا عميقًا، تدفع بالقادرية الذين كانوا في الصحراء الكبرى وفي السودان الغربي، إلى حياة ونشاط جديدين، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين، ومقاطعات صغيرة ممن انضموا إلى القادرية قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب النيجر. وتقوم المراكز الرئيسية لتنظيم دعوتهم في كنكا وتمبو Timbo (فوتا جالون) ومسردو (Musardo) (الواقعة في بلاد مندنجو Mandingo)[٢].

وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابًا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين. وتسلطت القادرية شيئًا فشيئًا على من كان يحيط بها. وسرعان ما تطور الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى جماعة صغيرة من الذين دخلوا في الإسلام كان يرسل منهم في أغلب الأحيان من هم معقد الرجاء إلى المراكز الرئيسية لهذه الجماعة، ليتمموا دراستهم، بل كانوا يبعثون إلى مدارس القيروان أو طرابلس، أو إلى جامعات فاس والأزهر بالقاهرة[٣]. وربما قضوا في هذه البلاد عدة سنوات حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون إلى أوطانهم مزودين قزودًا تامًا للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم.

وعلى هذا النحو تسربت نواة الإسلام إلى عبدة الفتش والوثنيين، فنشرت العقيدة تدريجيًا نشرًا قويًا مستمرًا، وقد تم ذلك بخطوات غير محسة في الغالب. وكان المعلمون

---

(١) Rinn, p. 175.

(٢) Bonet-Maury, p. 439.

(٣) Id, p. 230.

حتى منتصف القرن التاسع عشر، يؤسسون المدارس في السودان ويشرفون عليها؛ وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا في كنف القادرية ونظامهم الذي أقاموه على طريقة منظمة مستمرة في دعوة القبائل الوثنية. وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه، وعلى انتشار التعليم[١].

وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة؛ ذلك لأن أهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح. ومع أن الملوك وأصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم، كان كرمه البالغ يجعله دائمًا في فقر، ولا تجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين. وكان كلما تكلم عن أهل الكتاب، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل، ويدعو الله أن ينير لهم السبيل. وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح، الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور[٢].

أما التيجانية التي تنتسب إلى طائفة نشأت في بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر، فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية في الدعوة. ويعزى تعدد مدارسهم في الغالب إلى نشر العقيدة؛ ولكن التيجانية، التي كانت تختلف عن القادرية، لم تتورع عن اللجوء إلى السيف، يستعينون به على إنجاح خطتهم في تحويل الناس إلى الإسلام. وإذا ما قدرنا نشاط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام في إفريقية الغربية تقديرًا صحيحًا، فإنه يؤسفنا أن نجد شهرة جهادهم أو حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين، على الرغم من أن أعمال الأخيرين كانت أجدى على انتشار الإسلام من إنشاء دويلات صغيرة قصيرة الأجل.

ونجد أخبار الحملات وخاصة عندما كانت تتناول المشروعات التجارية أو خطط

---

(١) Le Chatelier (2), pp. 100-9.

(٢) Rinn, p. 174.

الغزو التي قام بها الجنس الأبيض، تسترعي بطبيعة الحال انتباه الأوربيين أكثر من أن تسترعي انتباههم الأعمال السلمية التي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم. ولكن تاريخ أمثال هذه الحركات له تلك الأهمية، وهي أن الغزو – كما كان يحدث دائمًا في حالة الإرساليات المسيحية أيضًا – قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة، وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال أهلها على الوثنية.

أما أولى الحركات الحربية التي قام بها أفراد التيجانية في نشر الدعوة، فتعزى نشأتها إلى الحاج عمر الذي كان قد دخل في هذه الجماعة على يد أحد زعمائها الذي تعرف عليه في مكة. ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من بودور Podor على السنغال الأسفل، ويظهر أنه كان رجلاً كريم السجايا، ذا نفوذ شخصي، ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة. وكان ابنًا لأحد المرابطين، وتثقف ثقافة دينية متينة، واشتهر بعلمه وورعه قبل خروجه إلى الحج سنة ١٨٢٧. ولم يعد، من الحج، إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣، حيث نشط في نشر تعاليم التيجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة، وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه.

وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط، فظهر بكثير من الأتباع، وكرَّم كنبيّ جديد، وما إن وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ فوتا جالون، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية، وكانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنغال. وفي إحدى هذه الغزوات لقي حتفه في سنة ١٨٦٥. ولم ينجح ابنه، أحمد شيخو، في ضم مختلف الولايات في مملكة أبيه إلا سنوات قلائل؛ ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين، وانتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا[١].

ذكرنا من قبل طرفًا عن دخول الإسلام في هذا الجزء من إفريقية. كانت البذرة التي بذرها هناك عبدالله بن ياسين وأصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع

(١) Oppel, pp. 292-3, Blyden, p. 10. Le Chatelier (3), p. 167 sqq,

عرب واحة الحوصة وغيرهم. ويحدثنا رحالة في القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شريعة مُحَمَّد، مبينين لهم أنه من العار عليهم، أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكون لهم أية شريعة من الشرائع الربانية، وأن يفعلوا ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الإطلاق. ومن هنا، قد يظهر أن هؤلاء الدعاة الأول استغلوا الطابع الذي تميز به الدين الإسلامي، ودستور الحكم فيه ليؤثروا في عقول هؤلاء المتوحشين غير المتحضرين[١].

ولدينا تفاصيل أوفى عن حركة من هذا النوع ذاته أحدث من تلك، قامت في جنوب سنغامبيا، على يد أحد المندنجو، ويدعى صمودو، وقد اشتهر باسم سمرى، وهو جندي وثني موسر، ولد حول سنة ١٨٤٦، وأصبح مسلمًا في عهد مبكر من تاريخ حياته، وأسس إمبراطورية في جنوب سنغامبيا في البلاد التي يرويها الحوض الأعلى من نهر النيجر وروافده. وقد كتب أحد مؤرخي هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمرى، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن أعماله؛ ويبدأ كالآتي:

"هذه قصة الإمام أحمد صمودو، أحد أفراد المندنجو... لقد أنعم الله عليه بعونه منذ أخذ في زيارة الوثنيين عبدة الأصنام، أولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو، وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى اتباع دين الله، الدين الإسلامي. ولتعلموا يا من تقرءون هذا أن الإمام صمودو وجّه همته أول الأمر إلى بلدة تدعى فولندية. ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة أرسل رسلًا إلى ملك هذه البلدة، ويدعى سنديدو، يدعوه إلى الإذعان لحكومته، ونبذ عبادة الأصنام، وإلى عبادة الإله الواحد العلي الحق الذي تنفع عبادته خلقه في هذه الدنيا وفي الآخرة؛ ولكنهم تأبوا على الخضوع، ففرض عليهم الجزية، كما أمر بها القرآن؛ ولكنهم ظلوا في عماوتهم وصممهم، فجمع الإمام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل، كانوا شجعانًا أشداء، وحارب هذه المدينة، فأعانه الله ونصره عليهم، وقد طاردهم بخيله حتى سلموا. إنهم لن يعودوا إلى وثنيتهم، وذلك لأن كل

(١) Delle Navigationi di Messer Alvise da ca da Mosto. (A.D. 1454) Ramusio, tom i.p. 101.

أولادهم الآن في مدارس يحفظون فيها القرآن، ويلمون فيها بأطراف من الدين والتهذيب. والحمد لله على هذا[١]".

وليس من الممكن في هذا المقام أن نتتبع سلسلة فتوحاته التي تميزت بكثرة المذابح والتخريب[٢]. وقد بلغ أحمد صمودو أوج قوته حول سنة ١٨٨١، وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعد سلسلة من الغزوات القاسية، ومات في سنة ١٩٠٠. ومع أن فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم جنوده القساة، وتظاهر آخرون بقبول الإسلام بدافع الخوف، يظهر أنه لم يكن يهدف إلى نفس هذا الغرض الديني الواضح الذي كان يهدف إليه الحاج عمر[٣]. وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة، فبذلوا، بما عرف عنهم من التقاليد التي ساروا عليها في التسامح، مجهودًا كبيرًا ليخففوا من أعماله الوحشية[٤]. وفتحوا المدارس في المدن التي كانت قد غلبت على أمرها، وهناك وضعوا نظام جماعتهم، وعلموا من دخلوا في الإسلام حديثًا، كما سعوا في نفس الوقت إلى جذب مسلمين جدد.

أما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية في الدعوة إلى الإسلام، فمن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام في هذه المناطق، إذ اتضح أن ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة قد نسي سريعًا فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التي بقيت في أيدي خلفائه بصفة نهائية. وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة إلا آثار يسيرة جدًا[٥]. أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات في تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية الغربية فهي ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية، تجلت في نشاط الدعوة إلى الإسلام بين

---

(١) Blyden, pp. 357-60.

(٢) تناول Le Chatelier (3) هذه المسألة بالتفصيل ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) Le Chatelier (3), p. 237 لم يتدخل سموري في المسألة الدينية تدخلًا مباشرًا، وقد وصل L.G. Binger إلى هذه النتيجة نفسها، عن طريق معرفته الشخصية بسموري. (Le Péril de L'Islam, p. 20) (Paris, 1906)

(٤) Le Chatelier (3), pp. 238-40.

(٥) Le Chatelier (2), p. 112. R. du M. M., vol. xii. P. 22.

الشعوب الوثنية الذي كان واسع النطاق والذي كان ذا طابع سلمي خالص. ولم تكن هذه الحروب الدينية، إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة، إلا أحداثًا عارضة في النهضة الإسلامية الحديثة. ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التي كانت تؤثر تأثيرًا حقيقيًا في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية، والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة، لدلت على أنها تقريبًا لم تكن ذات أثر فعال على الإطلاق في خلق جماعة إسلامية حقة.

والواقع أن الحروب الهدامة والقسوة الغاشمة من جانب الفاتحين من أمثال الحاج عمر وسموري ورسل التيجانية بصفة خاصة، قد جعلت عقيدة الإسلام مكروهة كرهًا شديدًا من قبائل السودان الوثنية في البلاد التي يرويها السنغال والنيجر. ويكاد يتخذ هذا العداء الذي أضمرته هذه القبائل للدين الإسلامي صورة حركة قومية، ولكن مع هذا كانت لا تزال الدعوة الإسلامية تنشر عقيدة النبي في أجزاء كثيرة من غينا وسنغامبيا، تلك المناطق التي كان يحمل إليها جماعة الفلبي[1] وتجار من الحوصة في رحلاتهم التجارية المتكررة معارف دينهم، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الإسلام.

ومما هو جدير بأن نخصه بالذكر، نشاط هؤلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جددًا أدخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي السلام إلى البلاد، وإن تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلمية، وكذلك تغلغله في أجزاء أخرى من إفريقية، كانت قد دخلت حديثًا تحت سلطان النفوذ الأوربي، قد لقي تيسيرًا بفضل ما أظهره الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين، وما أظهره هؤلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والخرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفتش الوثنيين[2].

---

[1] وقبائل الفلبي جميعًا مسلمون متحمسون، فحيثما وجدوا؛ تجد مسجدًا. (Haywood, p. 200)

[2] Le chatelier (3), pp. 231,273, 303. Westermann, pp. 632-3

لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذي قامت به الفرقة التي سنتحدث عنها لم يكن مقترنًا بحال ما بعمل من أعمال العنف والحرب، ولم يستعمل في خدمة الدين إلا كل ضروب السلام والإغراء.

وفي سنة ١٨٣٧ أسس فقيه جزائري يدعى سيدي مُحَمَّد بن على السنوسي، جمعية دينية تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية، ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بقوة عبقريته الصافية دون أن يريق الدماء، ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاؤه حدودها كل يوم[١]. ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن بكل دقة وبما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد تشدُّدًا، تلك المبادئ التي تجعل التعبد لله وحده، وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريمًا تامًّا، وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة إذا لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها. كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاط على تقدم الإسلام، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي.

وتنتشر هذه الجماعة في إفريقية الشمالية كلها، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال إفريقية من مصر إلى مراكش، كما تمتد إلى الداخل في واحات الصحراء وفي السودان، وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب[٢] في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس، وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاة للإسلام. وكانت زواياهم الفرعية (ويقال: إنها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم

---

[١] مُحَمَّد بن عثمان الحشائشي ص٨٤ وما بعدها.

[٢] في سنة ١٨٩٥ هاجر إلى كفره سيدي المهدي، وهو ابن سيدي مُحَمَّد السنوسي وخليفته؛ لأنها كانت أكثر توسطًا من جغبوب (مُحَمَّد بن عثمان الحشائشي ص ١١١–١١٥)؛ ولكنه توغل فيما بعد جنوبًا إلى منطقة بوركو Borku وتبستي Tibesti حيث توفي سنة ١٩٠٢، وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد، أحد أقرباء مؤسس الجماعة.

(J. C. E. Falls: Drei Jahre in der libyschen Wuste, p. 274.) (Freiburg, 1911).

الرئيسية في جغبوب التعليمات والأوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى التي كانت تضم – في نظام رائع – آلافًا من أشخاص ذوي جنسيات وقوميات متباينة، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية. ولما كان النجاح الذي تحقق على أيدي دعاة هذه الجماعة المتحمسين النشيطين عظيمًا، لم يقتصر وجود أتباعهم على كل إفريقية الشمالية من مصر إلى مراكش وفي أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة، بل نجدهم كذلك في بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو[١].

ومع أن السنوسية كانت في أول أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبل وثنية أو مسلمة إسلامًا اسميًّا بحتًا، من أتباع عقيدة النبي المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية. ومن هذا النوع من النشاط نذكر على سبيل المثال: ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا في الإسلام، تلك الجماعة التي كانت لا تزال وثنية من قبيلة بيلي **Baele** (وهي قبيلة تسكن بلاد إنيدي **Ennedi** الجبلية شرقي بوركو) بل إنهم حملوا حماستهم الدينية إلى الجماعات الأخرى من القبيل لما وجدوا معرفتهم بالإسلام معرفة سطحية، ولم يكونوا إلا مسلمين اسمًا[٢].

أما جماعات التيدا **Tedas** التي كانت تقيم في تو **Tu** أو تيبستي **Tibesti** بالصحرا جنوبي فزان، والذين لم يكونوا كذلك إلا مسلمين اسمًا؛ فإنهم عندما قدم السنوسية وأقاموا بينهم يحملون الدليل كذلك على نجاح جهود هذه الطائفة[٣].

يضاف إلى هذا أن دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة في بلاد الجلا **Galla** فيرسلون إليها كل عام دعاة جددًا من هرر، حيث تتمتع السنوسية هناك بقوة كبيرة،

---

(١) **Riedel (1) pp. 7, 59, 162.**

(٢) **G. Nachtigal: Sahara und sudan, vol. ii, p. 175. (Berlin, 1879-81.)**

(٣) **Duveyrier, p. 45.**

ومنهم كل الرؤساء في بلاط الأمير تقريبًا بدون استثناء[١]. ويستعين دعاتهم على نجاح جهودهم في نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس، وقد ظفروا من استيطانهم في واحات الصحراء – وخاصة في وداي Wadai– بزيادة كبيرة في عددهم، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في جغبوب، فإذا ما رأوا أنهم تعلموا مبادئ المذهب تعليمًا كافيًا، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام[٢]، على أنه قد يظهر أن نفوذ هذه الجماعة في طريقه الآن إلى الانحلال[٣].

ومع أن هذه الأخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة، فإنها ذات أهمية بالنظر إلى النقص العام في الأخبار الخاصة بانتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقية.

ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة، نجد المسلمين الذين يقيمون بين أظهر عبدة الفتش وعبدة الأصنام ويمثلون ديانة وحضارة أرقى، شاهدًا حسيًّا على الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، كما أنهم يختلفون (وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الإسلامي) اختلافًا بينًا عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمور الأوربية.

وقد أوضح رحالة حديث[٤] هذه المفارقة عندما تكلم عن حالة الانحلال التي وصلت إليها قبائل النيجر الأسفل:

"بينما كانت الباخرة تسير بي صعدًا في مياه النهر (يعني النيجر)، لم أجد إلا قليلًا

---

(١) Paulitschke, p. 214.

(٢) H. Duveyrier: La Conferie musulmane de sidi Mohammed Ben Ali EsSenousi, passim. (Paris, 1886.) Louis: Marabouts et Khouans, pp. 481-513. N. Slousch: Les Senoussiya en Tripolitaine. (R, du M., vol. i. p. 169 sqq.) وللوقوف على ثبت بمراجع الحركة السنوسية، انظر:
Der Islam, iii. Pp. 141-2, 312.

(٣) R. du M.M., vol. i. p. 181, vol. viii. Pp. 64-5

(٤) Joseph Thomson (2), p. 185.

من التغيير للمناظر التي شاهدتها في الأميال المائتين الأولى؛ لأن الفتشية والوحشية وتجارة الخمور قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة. ولكني لما تركت وراءي المنطقة الساحلية المنخفضة، وألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط، لاحظت تحسنًا مطردًا في المظهر الأخلاقي عند الأهلين، واختفت الوحشية، وتبعتها الفتشية في هذه السبيل، وزالت تجارة الخمور إلى حد بعيد، على حين صارت ملابسهم أكبر وأكثر احتشامًا، وأصبحت النظافة عندهم عادة، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم، وقد دل كل شيء على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقيًّا إلى حد ما، ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرًا عميقًا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانًا جديدًا، ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام. ولما مررت بلُكزجا Lokoja عند ملتقى نهر بنوى Benue بالنيجر تركت وراءي المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإسلامية، فلما دخلت السودان الأوسط وجدتني في دولة أحسن نسبيًّا في طريقة حكمها، غاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكياء، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات، والنحاس، والجلد؛ والواقع أنهم شعب تقدم تقدمًا عظيمًا في مراقي الحضارة والمدنية".

ولكي نقدر نشاط الدعوة الإسلامية في نجرتيا Nigritia تقديرًا صحيحًا، يجب ألا يعزب عن أذهاننا أنه بينما كان الداعي المسلم على السواحل وامتداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الإسلامي، ممهد الطريق لدينه؛ فإنه كان لا يزال متروكًا وراءه هناك مجال واسع للدعاية الإسلامية في الأراضي الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق، على الرغم من أن الإسلام رسخت أقدامه في هذه الأراضي منذ زمن بعيد. وكانت هناك جماعات من الفونج، وهم الجنس الزنجي الذي كانت له السيادة على سنار، يدين بعضهم بالإسلام وبعضهم الآخر بالوثنية، وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيين في الإسلام[1].

---

[1] Oppel, p. 303

أما قبيلة جوكون Jukun الوثنية[١] التي دالت دولتها، وكانت قوية يومًا ما قبل أن يسير الفلبي في سبيل الفوز والغلبة، فقد ناهضت النفوذ الإسلامي الراجف، مع أن وزير ملكهم كان أجنبيًّا يختار دائمًا من المسلمين، وكانت جاليات من الحوصة وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم. ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحًا في أن يدخلوا في الإسلام أحدًا من بين الجوكون الذين كانت تقاليد مجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم[٢].

ولعله من اليسير أيضًا أن نحصي كثيرًا من عشائر السودان وسنغامبيا، ما زالت تحتفظ بعاداتها وعقائدها الوثنية، أو تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر، على الرغم من أن أتباع النبي كانوا (في معظم الأحوال) يحيطون بهم منذ قرون. ولا يزال الكنو Konnohs، وهم فرع من قبيلة مندنجو الكبيرة، يدين معظمهم بالوثنية، ولم يتقدم الإسلام بينهم إلا في السنين الأخيرة[٣].

وكان من أثر ذلك أن الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة التي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالي، لم تجد مجالًا واسعًا يمكنها من إظهار نشاطها، ومن ثم جاءت الأهمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في هذه القارة، ثم أهمية حركات الإصلاح في الإسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية، وهي مسائل لفتنا النظر إليها من قبل.

أما الساحل الغربي من إفريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الإسلامية، حيث وجد الإسلام نفسه أمام شعب ضخم لم يكن قد أسلم بعد، على الرغم من أنه ازدهر على ساحل غينا، وفي سيراليون وليبريا، تلك البلاد التي نجد عدد المسلمين فيها أخيرًا أكثر من عدد الوثنيين.

---

[١] وتقع في ولاية موري Muri في نيجريا الشمالية.

[٢] Journal of the African Society, vol. vii. Pp. 379-81

[٣] Haywood. P. 33.

وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الإسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون، نجدها في التماس لحل جماعة سيراليون Sieerra Leone Company أمر مجلس العموم بطبعه، في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢، وهذا نصه:

"منذ مدة لا تزيد على سبعين عامًا، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلًا، وسموها بلاد مندنجو، وكما هي العادة عند أساتذة هذا الدين (الإسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها مُحَمَّد، وجروا على عادات المسلمين، وخاصة في عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق، وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن، واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان.

وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيًّا، كما جلبوا لها الاتحاد والطمأنينة، وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادة سريعة، وانتقل إلى أيديهم شيئًا فشيئًا كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها. أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للمندنجو، ويعودون ومعهم قسط وافر من دينهم وشرائعهم.

وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير، ويبدو أن من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشارًا سليمًا في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة المندنجو حاملًا معه تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائمًا على خرافات الزنوج[١]".

ويظهر أن الإسلام لم يجد له منفذًا في بلاد مندي Mendi التي تقع على بعد مائة ميل تقريبًا جنوبي سيراليون، إلا في القرن الحاضر؛ ولكنه الآن يتقدم تقدمًا ثابتًا.

"ولا يقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض، بل كل

---

[١] Claude George: The Rise of British West Africa, pp. 120-1. (London, 1902)

مسلم هناك داعية نشيط، وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم وأقل من ذلك أو أكثر، وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن؛ سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدعوة، فهم يتقدمون أولًا إلى رئيس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذي يقصدون إليه، وربما ظفروا بوعد منه أن يصبح مشايعًا لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية، أو يُحَفِّظونَهُ منها القدر الذي يستطيع أن يحفظه أو يعيه، ويمدونه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة، ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية– وسواء روعي هذا الشرط أم لم يراعَ – أصبح الرجل مسلمًا[١]".

وعلى ساحل غينا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدي تجار الحوصة الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل، وكلما أنشئوا لهم مقرًّا؛ أسرعوا إلى بناء مسجد، وأثروا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة، وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الفتش دون أن يبذل المسلمون أية جهود خاصة يستوجبها إغراؤهم؛ وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم[٢].

أما أشنتي فكان فيها نواة لمجتمع إسلامي يرجع وجوده فيها إلى سنة ١٧٥٠، ولما كان دعاة الإسلام قد لقوا ترحيبًا من أهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء ولكنه محقق[٣]، واستطاعوا بواسطة مدارسهم أن يسيطروا على عقول الجيل الأحدث، ويقال إن هناك علامات واضحة على أن الإسلام ستصير له الغلبة في أشنتي إذ دخل فيه كثير من الرؤساء[٤].

وفي دهومي Dahamey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم تقدمًا جديدًا، حتى

---

(١) Islam and Missions, pp. 73-4

(٢) Lippett: Uber die Bedeutung der Haussanation fur unsere togo- und Kamerunkolonie P.200 MSOS, Band.x (1907), Abteilung III.

(٣) Wailtz: 11er. Theil, P.250.

(٤) C.s salmon, P801.

لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية أنفسهم الإسلام نجدهم يبيحون لأنفسهم – في أوقات كثيرة – أن يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس[١].

وفي هذا الجزء من القارة تعتبر دهومي وأشنتي أهم الدول التي لا تزال يحكمها حكام وثنيون، ويقال إن تحولهما إلى الإسلام لا يحتاج إلا إلى زمن قصير، ويوجد قرابة ١٠٠٠٠ مسلم في لاجوس Lagos، كما أن كل المراكز التجارية في الساحل الغربي تضم بين سكانها جماعات إسلامية من القبائل الزنجية الراقية من أمثال الفلبي والمندنجو والحوصة.

وحين يهبط رجال هذه القبائل إلى مدن الساحل، وهم يأتون إليها جماعات ضخمة، إما تجارًا وإما جنودًا يخدمون في جيوش السلطات الأوربية، لا يعجزون بحال عن أن يؤثروا في زنجيّ الأراضي الساحلية، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية.

ويرى زنجيو الساحل أن حكام الأوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يؤمنون بالقرآن أينما كانوا، وأن هؤلاء المؤمنين لا يختلفون عنه في الجنس أو المظهر، ولا في الزي أو الطباع اختلافًا بعيدًا يستحيل معه أن يدخل في زمرتهم؛ بل إن هؤلاء المؤمنين فضلًا عن ذلك قد منحوه حظًّا من امتيازاتهم على شريطة أن يدخل في دينهم[٢].

وإذا ما أظهر الزنجي الوثني– مهما كان خاملًا مغمورًا – رغبته في قبول تعاليم النبي، بادروا بضمه إليهم، فيصبح واحدًا منهم متساويًا معهم، وليس قبوله في أخوة المسلمين امتيازًا يمنحونه إياه متبرمين؛ ولكنه امتياز يمنحه إياه رغبة وحرية، دعاة ذوو غيرة وحماسة في نشر تعاليم الدعوة، ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس، في مسافة تبلغ ألفي ميل، يندر فيما يقال أن نجد مدينة ذات أهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل، ومعه دعاة نشيطون يعملون في أغلب الأحيان جنبًا إلى جنب مع معلمي المسيحية[٣].

---

(١) Pierre Bouche, P256.

(٢) C.S.Salmon, P887

(٣) Blyden, P.202 Westermann, pp.633-4.

ولننتقل الآن إلى تاريخ انتشار الإسلام على الجانب الآخر من قارة إفريقية، ذلك الجانب الذي كان سكانه وثيقي الصلة بالأرض التي نشأ فيها الإسلام. على أن الحقائق التي دُونت عن المواطن الأولى التي استقر فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدًّا، ويذكر أحد الكتب التاريخية العربية – وكان قد وجده البرتغاليون في مدينة كلوا[1] Kiloa حين اجتاحها دون فرنسيسكو داميدا في سنة ١٥٠٥، أن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين، كان يقول بها شخص يدعى زيدًا[2]، من سلالة النبي، وقد سموا إموزيديج (وربما قصدوا بذلك أمة زيدية) نسبةً إليه. ولا يبعد أن يكون زيد الذي أشير إليه هنا هو زيد بن على حفيد الحسين، كما هو واحد من أحفاد على ابن عم النبي مُحَمَّد (عليه السلام): وقد ادعى في عهد الخليفة هشام أنه الإمام المهدي، وأشعل نار الثورة بين حزب الشيعة؛ ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢هـ (٧٤٠)[3].

ويظهر أن هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين، ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين.

وجاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة إخوة هاربين من اضطهاد ملك لاساه[4]، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم، وأول مدينة بنوها هي مجدكسو[5] التي ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوة التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل؛ ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم الأموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجئين الجدد، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرون من أهل السُّنة، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقدشو،

---

(١) تقع على جزيرة على مسافة ٥ جنوبي زنجبار

(٢) De barros dec, I, Liv, viii, cap, iv.P.211

(٣) ابن خلدون ج٣ ص٩٨–١٠٠

(٤) من الممكن أن تكو ن محرفة من الحسا. انظر ابن بطوطة ج٢ ص٢٤٧–٨.

(٥) أو مفتشو كما تسمى عند العرب

وارتدوا إلى الداخل حيث اندمجوا في السكان الأصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم[١].

وقد أنشأت مقدشو حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة حينما أدى قدوم مهاجرون آخرين من الخليج الفارسي إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب، وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليًّا، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسنًا: ولما كانت أمه حبشية؛ ازدراه إخوته، وعاملوه معاملة قاسية، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما Ormu$_z$ ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه، وسار متجنبًا مقدشو التي ينتمي سكانها إلى فرقة دينية تختلف عن الفرقة التي ينتمي إليها، فمضى في طريقه صوب الجنوب، إذ سمع أن الذهب يوجد في ساحل زنجبار، وأسس مدينة كلوا، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل، وأن يكون متحررًا من تدخُّل أسلافه المقيمين بعيدًا عنه في الشمال[٢].

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة ما كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليه أرض الزنج، وأيًّا كانت الجهود التي بذلها المستوطنون المسلمون في تحويل الزنج إلى الإسلام؛ فالظاهر أنه لم يبق لنا سجل عنها.

وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموعة رحلات قديمة، لا يبعد أنها كتبت في أوائل القرن العاشر، تصور لنا الإسلام بأنه دخل في إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه؛ ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الريح عن طريقها في سنة ١٩٢٢م وأرسلتها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر، حيث توقع البحارة موتًا محققًا؛ ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه، إذ تلقاهم الملك لقاءً رحيمًا ورحب بهم ترحيبًا كريمًا عدة شهور باعوا في خلالها

---

(١) J. deBarrosm dec.i. Liv. vilii. cap.iv.pp.211-12.

(٢) de Barros id, PP.224-5. See Also, Justus Strandes: die Portugiesenzeit von deutsh English Ostafrike p.81 sqq (berlin, 1899).

بضاعتهم بشروط مربحة؛ ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة، فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم، وحملوهم معهم إلى عمان رقيقًا، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار أنفسهم إلى نفس الميناء، فعرفهم الأهالي وطوقوهم بقواربهم؛ فسلموا أنفسهم متوقعين الموت في هذه المرة، فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت. ثم أخذوا إلى حضرة الملك، حيث تبينوا في دهش وعجب، أنه الملك نفسه الذي عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك ببضع سنين. وبدلًا من أن يقتص منهم بأي نوع من القصاص لمسلكهم الغادر، أبقى على حياتهم، وتركهم يبيعون بضاعتهم، ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها إليه رفضا ينطوي على التقريع. وقبل أن يبرحوا تقدم واحد منهم في جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره؛ فوصف لهم كيف أخذ رقيقًا إلى البصرة، ومنها إلى بغداد، حيث أسلم وتفقه في الدين فلما هرب من مولاه لحق بقافلة الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة؛ وبعد أن أدى مناسك الحج وصل إلى القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده، فوصل إليها أخيرًا بعد أن تجشم كثيرًا من الأخطار، ووقع في الرق أكثر من مرة. ولما عاد إلى مملكته من جديد، علم قومه دين الإسلام.. "وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله به عليَّ وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني؛ فعرِّفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن صرنا إخوانا لهم، مسلمين مثلهم"[1].

ومن هذا المصدر نفسه نعلم أنه حتى في هذه الفترة المبكرة، كانت جموع كبيرة من تجار العرب، تختلف إلى البلاد الساحلية. ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرونًا بين أهليها وبين المسلمين، كان تأثرهم (فيما عدا أهالي السومال) بالإسلام قليلًا قلة ملحوظة. وحتى قبل الفتوحات البرتغالية، وفي القرن السادس عشر، يظهر أن ما تم من حالات قليلة من حول الناس إلى الإسلام كان كله مقصورًا على الحدود الساحلية. وكذلك بعد أن تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم، وعاد هناك الحكم الغربي تحت إمرة سادة عمان، وإلى أن جاء القرن العشرين، كان من العسير أن تبذل أية جهود في نشر معارف الإسلام بين قبائل الجهات الداخلية، عدا قبائل الجلا وقبائل السومال.

ويقول رحالة حديث:

"لم أر في خلال الرحلات الثلاث التي قمت بها في شرق إفريقية الوسطى، شيئًا يحمل على الظن بأن الإسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية. ومهما كانت القوة الحية في هذا الدين، فإنها ظلت مستكنة، ولم يكن العرب ولا أحفادهم في هذه البلاد دعاة إسلام. وليست هناك بعثات تدعو إليه، وإنما قنع أهل مسقط بأن يسير عبيدهم، إلى حد ما، وفق شعائر الدين. وقد تركوا قبائل إفريقية الشرقية، الذين كانوا في الواقع، في جهلهم المطبق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء في جهلهم. وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهورًا جليًا في هذه الحقيقة الغريبة: وهي أنهم اتصلوا خمسة قرون بشعب نصف متحضر، ولم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الراقية التي كان يتصف بها جيرانهم، ولم تنبت وتزهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين" [١].

واستسلم العرب في إفريقية الشمالية كل الاستسلام سعيًا وراء التجارة وصيد الرقيق، فأظهروا فتورًا في ترقية شئون دينهم، فكان الفارق كبيرًا بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم في الدين نحو نشر الدعوة في أجزاء أخرى من إفريقية. على أن هناك حالة جديرة بالذكر نستثنيها، وهي نشاط نشر الدعوة الذي قام به تجار العرب أتيح لهم أن يدخلوا أوغندة في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ومن المحتمل أنهم عرفوا أن قوة روح الحرية في أهل بجندة جعلت قنص الرقيق من بينهم مستحيلًا، ولهذا سعوا إلى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم إلى دينهم. وأسلم كثيرون من أهل بجندة في عهد الملك موتزا Mutesa، ولكن زيارة استانلي لهذا الملك في سنة ١٨٧٥ أدت إلى دخول إرساليات مسيحية في السنة التالية، واضمحلت قوة المسلمين في هذه الدولة بالزيادة السريعة في عدد المتنصرين وقيام الحماية الإنجليزية هناك[٢].

ولكن لا يزال في أوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز مهمة، ومن المقرر أن

---

(١) عجائب كتاب الهند أو Li0vre de merveilles de L'inde, Publie par P.A van de Lithe 51.60 (Leiden, 1883)

(٢) Roscoe, P.229.sq

دخول الولاية الشرقية في الإسلام أمر ممكن. ويقال أن عددا ضخمًا من ذوي النفوذ بلاد بوسوجا Busoga الغنية، الواقعة في شمال أوغنده، والتي تخضع لإنجلترا، قد دخل في الإسلام سنة ١٩٠٦. [١]. ومع هذا الاستثناء، كان الإسلام في إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرا في البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد. وقد يبدو تفسير ذلك، في أنه لم يكن في مصلحة جلاب الرقيق أن ينشروا الإسلام بين القبائل الوثنية التي يأخذون من بينها ضحاياهم التاعسين؛ إذ لو تحولت هذه القبائل إلى الإسلام، لتآخت معهم في الدين، ولأصبح غير ممكن أن تباغت وتؤخذ رقيقًا. [٢]

ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوروبي في إفريقية الاستوائية الشرقية، تلا ذلك توسع كبير في نشاط نشر الدعوة الإسلامية، وتوطد السلام والنظام في الجهات الداخلية، ومدت السكك الحديدية وأنشئت الطرق، وحينئذٍ استطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه في مناطق مغلقة في وجهه حتى ذلك الحين. وقد اختارت إدارة هذه البلاد موظفها من بين أكثر السكان المسلمين ثقافة؛ فأنشأت حكومة إفريقية الشرقية الألمانية آلافا من الوظائف، أسندتها إلى موظفين من المسلمين، استغلوا نفوذهم في إدخال قرى بأجمعها في الإسلام[٣]، وكان معلمو مدارس الدولة مسلمين كذلك، وفي وقت مبكر يرجع إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لوحظ أن معلمي المدارس من السواحلية يقومون بنشاط حي ناجح في نشر الدعوة بين أهالي بندئي ووديجو (الذين يسكنون في الداخل على مسافة قصيرة من الساحل) في إفريقية الشرقية الألمانية[٤]؛ ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة في نشر الدعوة أصبح يسترعي النظر إلى حد كبير من الجهات الداخلية[٥] في مستهل القرن

---

(١) Zwemer, P.236 ويذكر جيردنر Gardiener (ص٢٩) أن عدد المصلين يبلغ ٢٠.٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم أربعة ملايين، ولكنه لم يبين من أي مصدر استقى هذه الأرقام، ويذكر روسكو (ص٦) أن مجموع سكان أوغنده لايتجاوز مليونا واحد تقريبا

(٢) Richter, PP. 146-7, 154 Merenesky, P. 156 Klamroth, P.4.

(٣) R. du M. vol. ix. (1909), P.322

(٤) Oscar Baumann: Usambara ans seine Nachargebiete, pp. 141. 153 (Berlin, 1891)

(٥) Becker, Islam in Deutsh- Ostafrike, P.10

العشرين، وخاصة بعد القضاء على ثورة سنة ١٩٠٥ في إفريقية الشرقية الألمانية.

وقد سايرت حركة التوسع في نشر الدعوة هذه بصفة خاصة، السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة، فانتشرت في خط مستقيم عبر إفريقية الشرقية الألمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا، وانتشرت نحو الشمال من أوسمبرا Usambara إلى مقاطعة كلمنجارو، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا[١]، وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار، وخاصة أهالي الساحل، من السواحليين والجنود وموظفي الحكومة[٢].

وينظر الوثنيون هناك إلى قبول الإسلام على أنه دليل على الترقي إلى حضارة ومنزلة اجتماعية أرفع مما هم فيها، ويقال إن الازدراء الذي كان ينظر به المسلمون إلى الوثنيين طالما كان عاملًا حاسمًا في تحولهم إلى الإسلام[٣].

ونستطيع أن نتخذ مثالًا لتأثير هذا الإحساس من أوسمبرا الغربية التي قيل إنها كانت لا تزال في سنة ١٨٩١ موصدة في وجه الإسلام، وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورًا عدائيًّا نحو المسلمين، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق؛ ولكنه لما انتهى عهد تجارة الرقيق وأنشئت إدارة منظمة، كان أول من عين من الموظفين الوطنيين كلهم تقريبًا من المسلمين.

وقد أثر هؤلاء في الزعماء وغيرهم من الشخصيات المهمة التي اتصلت بهم إلى حد أن الدخول في الإسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية، وبذلك نجحوا في أن يُدخلوا في الإسلام بعضًا من الزعماء أعظم من هؤلاء الذين نجدهم قد أثروا فيما بعد مثل هذا التأثير في زعماء أقل منهم منزلة.

ويظهر أن هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين أو نشاط أية فرقة من الفرق الدينية؛ ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة، كتلك

---

(١) Id.P.13 sqq. Klamroth, pp. 14-28

(٢) Id. P53

(٣) Klamroth

الجهود التي قام بها معلم مسلم، ذكر أنه كان يزور منطقة في بلاد كلمنجارو كل أسبوع زيارة منتظمة، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو إلى الإسلام، وقد رحب بجهوده الأهالي الذين كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الأرز وغيره [١]. ومما يلفت النظر في هذه الدعوة الحماسية أن الدعاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم، بل سعوا أيضًا لكسب متحولين إلى الإسلام من بين الأهالي المسيحيين [٢].

وقد شق الإسلام طريقه إلى نياسالاند من الساحل الشرقي أيضًا، ودخلها على أيدي النخاسين من العرب وحلفائهم الياوس Yaos، الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي، حيث كانوا قد اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد. ويقال إنه من النادر أن نرى الآن عربيًا في نياسالاند، ولكن الياوس يؤلفون قبيلة من أقوى القبائل الوطنية، وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومي. ومع أنه لا تبدو هناك دعوة منظمة، انتشر الإسلام بسرعة فائقة إبان العقد الأول من القرن العشرين، وكان انتشاره بين بعض القبائل التي تعد من أشد القبائل ذكاء في نياسالاند [٣].

سجل الإسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال. وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلا في الحبشة؛ ومن المحتمل أن هؤلاء المهاجرين الذين ينقسمون إلى سبع قبائل، تسمى بالولّوجلا، وهو اسم الجنس الذي ينتمون إليه، كانوا جميعًا وثنيين في وقت إغارتهم على هذه البلاد [٤]، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتى يومنا هذا. وبعد أن استقروا في الحبشة لم يلبثوا أن تأقلموا فيها، واتخذوا لأنفسهم، في كثير من الأحيان، لغة سكان البلاد الأصليين وتعودوا عاداتهم وتطبعوا بطبائعهم [٥]. أما قصة دخولهم في الإسلام

---

(١) Klamroth, p. 26.

(٢) Id. P. 67.

(٣) Becker: Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 14. The Moslem World, vol. ii. P. 3 sqq.

(٤) ويظهر في حقيقة الأمر أن وصفًا حبشيًا معاصرًا لهذه القبائل في كتاب:
Geschichte der Galla. Bericht eins abessinischen Mönches über die Invasion der Galla in sechzehnten Jahrhundert. Text und Übersetzung hrsg. Von A. W. Schleichler (Berlin, 1893), يصور هذه القبائل على أنهم وثنيون، على الرغم من أنه لم يرد عن ديانتهم أخبار مفصلة. على أن ركلوس Reclus (tome x. p. 330) يزعم أنهم كانوا مسلمين وقت قيامهم بالغزو.

(٥) Henry Salt: A Voyage to Abyssinis, p. 299. (London 1814).

فيكتنفها الغموض؛ فبينما يقال إن بعضهم أدخلوا كرهًا في الديانة المسيحية، نجد أن عدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين يدحض إمكان القيام بأي نشاط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو. وفي القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين في الجنوب يعتقدون الإسلام، أما الذين كانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون [٦].

وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى، في عدد أتباع النبي، وفي سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتسجر Munzinger بأن كل قبائل الجلا ستدخل في الإسلام في مدة قصيرة [٧]. وإذ قد قيل عنهم «إنهم متعصبون جدًا»، فإنا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ما غير متحمسين أو متراخين في اعتقادهم هذا الدين [٨]. ولا شك أن هذا الرجل المعتق الذي ينتمي إلى الجلا والذي قابله داوتي Doughty في خيبر قد أظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينه.

وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده في طفولته وبيع بيع الرقيق في جدة؛ فلما سأله دواتي: ألا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه وأسلموا حياته للعبودية في أقاصي الأرض، أجاب، «إن شيئًا واحدًا قد عوضني، وهو أني لم أعد غارقًا في الجهل بين عبدة الأوثان! ما أعجب عناية الرحمن! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول هذه، وتوصلت بها إلى معرفة الدين!» [٩] «آه! ما أشد حلاوة الإيمان! صدقني أيها الرفيق العزيز، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية؛ ولكني موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل هذا الدين. حقًا كم يكون جميلًا أن أراك مسلمًا، وأن تصبح واحدًا منا؛ ولكني أعرف أن الأجل بيد الله:

---

[٦] James Bruce: Travles to discover the source of the Nile, 2nded. Vol. iii. P. 243. (Edinburgh, 1805.)

[٧] Munzinger, p. 408.

[٨] I.l. Krapf: Reisen in Ost-Africa, ausgeFührt in den Jahren 1837-33, vol. i. p. 106. (Kornthal, 1858.)

[٩] Arabia Deserta, vol. ii. P. 168.

يفعل الله ما يشاء» [١٠].

وبعض السكان، في قبائل الجلا التي تقيم في بلاد الجلا الصميمة، مسلمون (إذا كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الإسلام حول سنة ١٥٠٠) [١١]، وبعضهم الآخر وثنيون، ما عدا تلك القبائل التي تقيم على حدود مباشرة، والتي أرغمها ملك هذه البلاد على انتحال المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر [١٢]. والمسلمون بين الجبال قلة، أما في السهول فقد صادف دعاة الإسلام نجاحًا رائعًا، ولقيت تعليمهم قبولًا من الناس أخذ ينمو نموًا سريعًا في خلال القرن الماضي. ويذكر أنطونيو ستشي Antonio Cecchi الذي زار مملكة لِمو الصغيرة في سنة ١٨٧٨، قصة عن إسلام أبا باغيبو [١٣] Baghibo Abba والد الأمير الذي كان يحكم إذ ذاك، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون في نشر الدعوة في هذ البلاد في زي التجار. وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك، واستمرت تتقدم بينهم، ولكن السواد الأعظم منهم كان يتشبث بعابدته القديمة [١٤].

وقد لقى هؤلاء التجار ترحيبًا حارًا في بلاط رؤساء الجلا، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الجنبية. ولما كان هؤلاء التجار يرتحلون إلى الساحل مرة واحدة كل عام، أو مرة فقط كل عامين، وكانوا يقضون كل ما بقي من الوقت في بلاد الجلا، كانت لديهم فرص كثيرة، عرفوا جيدًا كيف ينتهزوها للعمل في نشر الدعوة الإسلامية، وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن ظفروا بعدد كبير من الداخلين في الإسلام في مدة قصيرة من الزمن [١٥]. وقد دخل

---

[١٠] Id., vol. ii. P. 109.

[١١] Morié, vol. ii. P. 248.

[١٢] Reclus, tome x. p. 309. Basset. Pp. 270-1.

[١٣] عندما أنشأت الرومان الكاثوليك إرسالية بين قبائل الجلا في سنة ١٨٤٦، قال لهم أبا باغيبو: لو أنكم قدمتم منذ ثلاثين سنة، لاعتقدت دينكم، بل لاعتقده على جميع بني وطني؛ ولكن تحقيق ذلك الآن من المحال. Massaja, vol iv. P. 103.

[١٤] Da Zeila alle frontier del Caffa, vol. ii. P. 160. (Rome, 1886-7.)
Massaja, vol iv. P. 103; vol. vi p. 10.

[١٥] Massaja, vol iv. P. 102.

الإسلام هنا في نزاع مع مبشرين مسيحيين من أوربا، صادفت جهودهم نجاحًا قليلًا جدًا [١٦]، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل، وحتى الذين نصرهم الكردينال ماساجا Cardinal Massaja، فإنهم (بعد أن طرد من هذه البلاد) إما اعتقدوا الإسلام، وإما انتهوا إلى عدم الإيمان، لا بالمسيح ولا بالله [١٧] بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحًا مستمرًا، وشقوا طريقهم بعيدًا نحو الجنوب، وعبروا نهر وابي [١٨].

وكانت غالبية قبائل الجلا التي تقيم في غرب بلاد الجلا لا تزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا في أقصى الغرب، ونعني بهم الليجا [١٩]، كانت في طريقها إلى التدهور؛ وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ في النمو ودخل كل قبائل الليجا في حظيرة الإسلام، في مدى سنوات قليلة، أمرًا محتملًا [٢٠].

وإن إفريقية الشمالية الشرقية في الوقت الحاضر لتمثل لنا حقًا صورة لنشاط ذوي حيوية وحماسة رائعتين في نشر الدعوة من جانب المسلمين. وتفد من بلاد العرب عدة مئات من الدعاة كل عام، وهم أيضًا أكثر نجاحًا في جهودهم بين قبائل السومال منهم بين الجلا [٢١] ولا بد أن يكون القرب الشدي بين بلاد السومال وبلاد العرب قد جعل الأولى، في زمن مبكر، مسرحًا لنشاط الدعوة الإسلامية؛ ولكن يظهر لسوء الحظ أن ما دون من هذا النشاط قليل.

وقد ذكر ابن حوقل [٢٢] أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن

---

[١٦] يقول ستشي وهو يتحدث عن إخفاق الإرساليات المسيحية: يجب البحث عن سبب هذا في انتشار الإسلام هنا، في هذه السنوات الأخيرة، الذي حمله مئات من رجال الدين والتجار المسلمين، الذين لم يعوزهم المال واللباقة والتمكن من اللغة.
(Op. cit. vol. ii. P. 342.)

[١٧] Id. P. 343.

[١٨] Reclus, tome xiii. p. 834.

[١٩] يوجد الليجا من خط طول ٩° إلى ٣٠ ٩° ومن خط عرض ٣٤ ٣٥° إلى ٣٥′ شرقًا.

[٢٠] Reclus, tome x. p. 350.

[٢١] Paulitschke, pp. 330-1.

[٢٢] ابن حوقل ص ٤١.

التاسع الميلادي، ولكن أبا الفداء يتحدث عنهم في النفص الأول من القرن الرابع عشر على أنهم مسلمون[١]. ومن المحتمل أن تجارا من العرب اللاجئين إلى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر. وتشيع لدى السوماليين أسطورة تقول بأن عربيًا عريقًا في الأصل، أجبر على أن يغادر بلاده، فعبر البحر إلى عدل، حيث دعا إلى الدين الإسلامي بين أجدادهم[٢].

وفي القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربيًا يدعون إلى الإسلام، فنزلوا في بربرة على البحر الأحمر، ومن هناك انتشروا في بلاد السومال ليدعوا إلى الإسلام. وقد شق أحدهم، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي طريقه إلى مدينة هَرَر حول سنة ١٤٣٠، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظم في هذه المدينة. وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليدًا لذكرى هؤلاء الدعاة، الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك في خلوة مقدسة قبل أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام[٣]. وقد ساد الإسلام شيئًا فشيئًا في جميع أنحاء إفريقية الشمالية الشرقية، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور منليك واحتلاله هرر في سنة ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين من الأهالي إلى المسيحية[٤].

ولكن نستكمل هذا الوصف الخاص بانتشار الإسلام في إفريقية، لا يبقى إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الدين قد شق طريقه إلى أقصى الجنوب من هذه القارة، ونعني مستعمرة الكاب. ومسلمو الكاب هؤلاء من سلالة أهل الملايو، جاء بهم الهولنديون[٥] إلى هذه البقعة إما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر[١]، وهم يتكلمون

---

[١] أبو الفدا جـ٢ القسم الأول ص٢٣١–٢٣٢.

[٢] Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce de l'Afrique Orientale, recueillis par M. Guillain. Deuxième partie, tome i. p. 399. (Paris, 1856).

[٣] R. F. Burton: First Footprints in East Africa, pp. 76, 404, (London, 1856).

[٤] R. du M. M., vi. P. 288. (1908).

[٥] كان رأس الرجاء الصالح في حوزة الهولنديين من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥؛ ولما استردوا بعد صلح أميان Peace of Amiens في سنة ١٨٠٢، احتلها البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى.

لهجة محرفة من لغة البوير، مع خليط كبير من اللغة العربية، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو.

وهناك كتاب صغير عجيب، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربية، وقد نشره وزير المعارف التركية في القسطنطينية سنة ١٨٧٧، ليستعمل كتيّبًا صغيرًا لتعليم قواعد الدين الإسلامي[٢]. وإن الأسماء الهولندية الصرفة التي يتسمى بها بعضهم، وملامح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم ليدل على احتمال أنهم التقوا في مجتمعهم في وقت ما بعض أشخاص من أصل هولندي، أو أن بدمائهم على الأقل مزيجًا كبيرًا من الدم الهولندي. وكذلك اكتسبوا بعض متحولين إلى الإسلام من بين الهوتنتون **Hottentots**. ولم يكتب عنهم الرحالون الأوروبيون[٣] بل إخوانهم في الدين، حتى الآيام الأخيرة، إلا مذكرات قليلة. وفي سنة ١٨١٩ لفت كولبروك الأذهان إلى نمو الإسلام، في بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب، قال: «يقال إن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود الأحرار من أهالي الكاب؛ ونعني بذلك، أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود على اختلاف أنواعهم كانوا أكثر عددًا من الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، وهذا على الرغم من الجهود القوية التي يبذلها مبشرون أتقياء.

وقد ثبت أن النفور الشديد الذي أبداه السادة من تعميد عبيدهم كان سببًا من أسباب هذا التحول؛ وقد نشأ ذلك من بعض أفكار خاطئة أو من فرط تخوفهم من الحقوق التي ينالها العبد الذي يُعَمَّد. ولا شك أن العبيد متأثرون بفكرة بقاء هذا النفور، ولم يكن من النادر أن يجيب العبد، إذا ما سئل عن بواعث تحوله إلى الإسلام، بأنه يجب

---

[١] وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف، وهو معلم دين ذو نفوذ عظيم في جاوة وآخر أبطال استقلال بنتام. وفي سنة ١٦٩٤ ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب، هو وعائلته، وكثير من أتباعه، ولا يزال ضريحه يعد مكانًا مقدسًا.

(G. M. Theal: History and Ethnography of Africa south of the Zambesi, vol ii. P. 263), (London, 1909).

[٢] **M. J. de Goeje: Mohammedaansche Propaganda, pp. 2, 6. (Over- gedrukt uit de Nederlandsche Spectator, No. 51, 1881).**

[٣] وقد نبه شخص يدعى كاميل الأذهان إليهم في سنة ١٨١٤.

William Adams: The Modern Voyager and Traveller, vol. i. p. 93. (London, 1834).

أن يكون له دين، وأنه لم يسمح له بأن ينتصر.

والتعصب في هذا الأمر آخذ في الزوال، وقد قلت الآن معارضة هؤلاء السادة في تنصير العبيد عما كانت قبل. وقد ثبت أن السادة أخذوا يدركون أن العبيد لا يسيئون استعمال التعاليم التي يتلقونها في واجباتهم الدينية. وهناك جموع آخذة في الزيادة على أيدي المبشرين (ويوجد في كل بلد من البلدان الرئيسة) وواحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية، ويأمل المبشرون ألا تكون جهودهم غير مثمرة. ولكن الداعية المسلم حول جموعًا أكبر بمجهود أقل من مجهود المبشرين»[١].

وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحيونها، ويقال إنهم يقومون بدعوة حماسية، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب وإنهم حصلوا على نجاح محقق[٢]. وإن حركة نشر تعاليم الدعوة هذه قوية في الجزء الغربي من مستعمرة الكاب خاصة. ويقال إن هناك حركة سائرة في طريق التنفيذ لتأسيس كلية في كليرمونت Claremont بجوار مدينة الكاب، وأنهم ستصبح مركزًا لنشر الدعوة الإسلامية. ومن الوسائل التي نشتغل الآن تبنِّي الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على دين الإسلام[٣]. ويحج فريق منهم كل عام إلى مكة، حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم[٤].

وكذلك يقال إن عمال الهنود الذين يأتون للعمل في حقول الماس في إفريقية الجنوبية دعاة للإسلام.

ولما كانت جزيرة مدغشقر في مكان منعزل، عن بعد يتراوح بين ٢٢٠ ميلًا و٥٤٠

---

(١) Sir T. E. Colebrooke: The Life of H. T. Colebrooke, p. 335. (London 1873).

(٢) F. Coillard: Au Cap de Bonne Espérance. (Journal des missions évangéliques, avril 1899, p. 265).

(٣) Kumm, p. 233.

(٤) C. Snouck Hurgronje (3), vol. ii. Pp. 296-7.

ميلًا من الأراضي الأصلية، فإنها تستدعي ذكرًا خاصًا. وإن القبيلة الوحيدة التي اعتقدت الإسلام هي قبيلة أنتيمورونا Antaimorona، التي تحتل جزءًا من الساحل الجنوبي الشرقي؛ ولا شك أن تحولهم إلى الإسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب، ولكن الوقت الذي تم فيه هذا التحول مجهول لنا تمامًا؛ وربما أرجعته الأساطير إلى نفس عهد مُحَمَّد ذاته، ولكنا لم نحصل إلا في القرن السادس عشر[١] على معلومات موثوق بها عن المسلمين في هذه الجزيرة، وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين[٢].

ومن هذا الوصف التاريخي المجمل نستطيع أن نرى أن الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية، ومع أن الإسلام كثيرًا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة، وكان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس إلى الإسلام. والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحًا دنيويًا سهل إلى حد كبير جدًا نجاح الإسلام في جهات كثيرة من إفريقية، كما سهله تأسيس دول إسلامية على أنقاض دول وثنية.

وإن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطة الجهاد، التي دبرت لاستئصال شأفة الكفار. وإن كلمات الشاب العربي الذي كان من البرنو والذي قابله الكابتن بورتن Burton[٣] في قصر ملك أبيكوتا Abeokuta، لتعبر بدون شك عن مطامح كثيرين من مسلمي إفريقية: «أعطنا هذه البنادق وهذا البارود. ندخل في الحال هذه الكلاب في الإسلام». ويتردد صدى هذه الكلمات في الرسالة التي يوردها منجو بارك[٤] Mungo Park باعتبارها مرسلة من ملك فوته تورو Futah Toro المسلم إلى جاره الوثني: «بهذه

---

(١) Jacques Bonzon: Les Missionaires de l'Ilam en Afrique. (Revue Chrétienne, tome xiii. P. 295). (Paris, 1893).

(٢) G. Ferrand, Les musulmans à Madagascar. Pp. 19, 50 sqq. 138. (Paris, 1891).
Id. Les Migrations Musulmanes et Juives á Madagascar. (Revue de l'Histoire des Religions, vol. lii p. 381 sqq).

(٣) Richard F. Burton (1), vol. i. p 2565.

(٤) T ravels in the Interior of Africa, chap. Xxv. Ad fin.

السكين سينزل عبد القادر ويحلق رأس دامل، إن دخل دامل في الإسلام؛ وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل إن أبي أن يدخل في هذا الدين؛ فاختر لنفسك».

ولكن بقدر ما يمكن أن يعزي الإسلام إلى البسالة الحربية التي قام بها أمثال هؤلاء المتعصبين، لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطريق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، لتلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام انتشارا سريعًا في إفريقية الحديثة، أكثر مما عمل أي أسلوب من أساليب العنف. وربما استأصل الإسلام حقًا شأفة مقاوميه بالأساليب الأخيرة، ولكنه عن طريق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام، ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم في كثير من الأقاليم الساحلية والداخلية[1].

وحيثما شق الإسلام طريقه، نجد هناك الداعي المسلم حاملًا الدليل لعقائد هذا الدين، فالتاجر سواء أكان من العرب أم الفلبي أم المندنجو، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يحتمل أن يتهم به من دوافع شريرة. وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة، التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنًا خفيًا. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنيين، الذين يبدى لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية؛ والحاج الذي عاد من مكة مليئًا بالحماسة من أجل نشر العقيدة، التي يقف عليها كل جهوده، متنقلًا من مكان إلى آخر، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين؛ وطالب العلم الذي يلقى تكريمًا باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلامية، بل أحيانًا يزاول الطب، أو على الأقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتباره كاتب تعاويذ وآيات من القرآن تطوى في قطع من الجلد أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق، وهي

---

[1] D. J. East. Pp. 118-20. W. Winwood Reade, vol. i. p. 312. Blyden, pp 13, 202.

مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام؛ مثال ذلك أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذَ النساءُ العواقر أو اللاتي فقدن أولادهن أطفالًا، يفرض عليهن شرطًا لنجاح هذه التعاويذ أن ينشئن أطفال المستقبل على الإسلام[١].

هؤلاء المعلمون الدينيون، أو المرابطون أو الوفاس، كما يطلق عليهم بحسب اختلاف أسمائهم، يحظون بأوفى نصيب من التقدير. وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية دار لاستقبالهم، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير؛ ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة، كما يحتلون بين المندنجو مكانة أعظم شأنًا، وينالون احترامًا يلي احترام الملك، ويعتبر الرؤساء، التابعون لغيرهم، أقل منهم هيبة: وفي تلك الدول التي اتخذ فيها القرآن أساسًا للحكم في كل المسائل المدنية، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجًا شديدًا لكي يفسروا معاني القرآن. وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال بلاد أمراء متعادين، بل مشتبكًا بعضهم مع بعض في حرب فعلية. ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل، لا في البلاد الإسلامية وحدها، بل في القرى الوثنية التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم، أوفي درء المصائب وصرفها عنهم[٢].

وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مساجد القيروان وفاس وطرابلس[٣] وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية، ولكنهم درسوا بصفة خاصة في الجامع الأزهر بالقاهرة. ويتدفق الطلبة إلى هذا الجامع من كل بقاع العالم الإسلامي، ومن بينهم في الغالب جماعة من زنوج إفريقية، طلبة من دارفور ووداي وبرنو، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيرًا على الأقدام من أقاصي الساحل الغربي؛ فإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة

---

(١) Bishop Crowther on Islam in Western Africa. (Church Missionary Intelligencer, p. 254, April, 1888).

(٢) D. J. East, pp. 112-13. Blyden, p. 202.

(٣) ويقال إن ما يربو على ألف داع من دعاة الإسلام، يغادرون طرابلس كل سنة للعمل في السودان. (Paulitschke, p. 331).

الإسلامية صار كثيرون منهم دعاة بين أهالي بلادهم الوثنيين. وينشئ هؤلاء الدعاة في المدن التي يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على سواه، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره، فإذا ما نجح الداعي المسلم، على هذا النحو، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في الأهالي الذين جاء يعيش بينهم، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه.

وما دام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالي؛ وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله في نظامهم الاجتماعي، يتوطد نفوذه ويستقر، وهكذا تنشر بينهم معارف الإسلام شيئًا فشيئًا وبطريقة طبيعية إلى أبعد حد.

وقد زاد من تيسير جهود الداعي في نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان Deism، وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الفتش، يمكن أن يتحول، في سهولة، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين، وكذلك الحال في بعض مظاهر أخرى في فلسفتهم الدينية. وهكذا نجد أن نظرتهم العامة في الحياة وكثيرًا من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير[1].

وإن نزول المسلمين في بلاد وثنية إنما هو كذلك إيذان بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشارًا، وبالاتصال بمراكز إسلامية تجارية كبيرة من أمثال جنى أو سجو Sego أو كانو Kano؛ كما أن هؤلاء المسلمين قدموا إلى الأهالي نصيبًا من مزايا هذه الحضارة المادية مع دين النبي. ومن ثم «قد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائمًا من الاستجابة السريعة؛ فهو يستطيع أن يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب وتنمي الإدراك، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصًا بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية، تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الأطلنطي إلى سور الصين.

---

[1] وللوقوف على بحث مستفيض لنقط هذا الاتصال، انظر Forget, p. 28 sqq. Merensky, p. 155.

وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك دارًا إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يسرد أركان عقيدته، واثقًا من المأوى والقوت والنصيحة؛ وسرعان ما يجد نفسه، في بلاده، عضوًا في طبقة ذات نفوذ إن لم يكن في الطبقة المتسلطة. ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة المسلمين في إفريقية الغربية. أما عدد المتحولين إلى الإسلام، فإنه كان كبيرًا، سريعًا في التحول، وذلك لسبب واضح، هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيرًا عمليًا على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعًا وتساويهم أمام الله، وهي مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية؛ غير أن هذا الداعي المسلم، بصفة عامة، أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخي في المسيحية، والذي كان دائمًا يثير تعصبًا جنسيًا لم يكن محتملًا أن يزول في جيل واحد، حيث كان يعد المسيحي الأبيض، طوال أجيال، سيدا، كما كان يعد الوثنى الأسود عبدًا»[١].

ومن المهم، أيضًا، أن نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين، على أن يتعصبوا عليه. ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في نجريتيا Nigritia تقدمًا جوهريًا بسبب عدم كل إحساس باحتقار الأسود، وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة، كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الأحيان، في العالم المسيحي[٢].

---

[١] Sir Bartle Frere (1), pp. 18-19.

[٢] E. W. Blyden, pp. 18-24. E. Allégret, p. 200. Westermann, pp. 644-5.
وفي مناظرة شائقة جدًا، وإن كانت قد نسيت الآن، أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن، حول موضوع «جهود المبشرين بين المتبربرين»، ذكرت حالة مبشر مسيحي في إفريقية، تزوج نجية. لذلك كان الشعور ضده، قويًا إلى حد أنه وجد نفسه مضطرًا إلى مغادرة المستعمرة. أما الداعي المسلم فإنه يشتغل بدعوته غير مستأثر بأمثال تلك المساوئ.
(Journal of the Anthropological Society of London, vol. iii. 1865).
وقد أجاد شخص كان نفسه زنجيًا في توضيح الفارق بين الطريقة التي تقدم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين، وذلك في العبارات الآتية: «بينما تنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر غير معين، نجد الدعاة المسلمين ينقذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحولونهم إلى الإسلام. وبذلك أصبح الزنوج اليوم

وإن هذه الملاحظة لتفسر إلى حد ما نجاح المسلم إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية. ويتضح في أغلب الأحيان أن الأسود المتنصر يميل إلى الإحسان بأن أبناء دينه من الأوروبيين ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقًا به واطمئنانًا إليه. وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة الآتية: «إن الإسلام، على الرغم من تقصيره، لا يتطلب، من وجهة نظر أهل نيجيريا، أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية، يستحيل تحققها في المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجيريا؛ ولا هو يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة. وليست هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه؛ فكلاهما متساوٍ أحدهما مع الآخر، لا نظريًا، بل عمليًا، أمام الله. وكلاهما إفريقي؛ وهما من أبناء أرض واحدة. وينفذ مبدأ التأخي الإنساني تنفيذًا عمليًا، ولا يعني الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شئونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين.

وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره، بل بسلوك مسلمي إفريقية الغربية عامة؛ وإن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يخيل إليك أنه يقول: إن كلًا منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعًا بشر، وإن انتشار الإسلام الذي نشهده اليوم في نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرًا اجتماعيًا. ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانه الإنسان من العالم المحيط به ويحرره من ربقة ألف من الأوهام الخرافية»[(١)].

ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض. ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حد أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولاحظ في هذا الدين. أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك. ومن ثم ركن الزنجي بدافع من الحماسة إلى هذا الدين بروحه وجسده».

(١) L'islam et le christianisme en Afrique d'après un Africain. (Journal des Mis- sions Èvangiliques. 63e année, p. 207). (Paris, 1888).
E. D. Morel: Nigeria, its people and its problems. Pp. 216-217. (London, 1911).

وقد ورد في الرواية الإسلامية أن موسى كان رجلًا أسود، كما قد نتبين ذلك من الآية القرآنية. {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى} (سورة ٢٠: آية ٢٣) {نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} (سورة ٧: آية ١٠٥–١٠٦).

والقصة الآتية التي وصلت إلينا عن العصر الذهبي للدولة العباسية، مهمة باعتبارها شاهدًا على شعور المسلمين نحو السود. كان إبراهيم بن المهدّي، أخو هارون الرشيد وابن إحدى الجواري، قد نصب نفسه خليفة في بغداد، ولكن المأمون الذي كان يحكم إذ ذاك (٨١٩م) هزمه وعفا عنه. ويقص إبراهيم قصة مقابلته مع الخليفة على النحو الآتي:

«قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني: أنت الخليفة الأسود؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا الذي أنعمت عليه بالعفو؛ وقد قال عبد بني الحسحاس:–

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له عند الفخار مَقام الأصل والوَرق

إن كنت عبدًا فنفسي حرة كرمًا أو أسود الخلق إني أبيض الخلَق

قال لي: «يا عم! أخرجك الهزل إلى الجد». وأنشد:

ليس يزري السواد بالرجل الشهم ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي[1]

وعلى هذا النحو، سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أية ملابسة من ملابسات الماضي. ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام، هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية؛ ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة

[1] ابن خلكان جـ١ ص١٨.

جدًا على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمنًا على الترقي في الحضارة، وأنه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقليًا وخلقيًا وماديًا.

وكانت القوى المحشودة جنبًا إلى جنب مع العقيدة الإسلامية، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية، تلك الأمور التي كان الديني جد في القضاء عليها، لا تجد إلا فرصة يسيرة في إطالة المقاومة. وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية الإسلامية إلى الزنجي الذي تحول إلى الإسلام، وضوحًا يبعث على الإعجاب في العبارات الآتية: «إن أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قربانًا، ووأد الأطفال أحياء.. تلك الرذائل التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل إفريقية، ولا تزال في بقاع كثيرة منها، حتى تلك الجهات التي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن موطننا، قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة أو أشباه عراة بدؤوا يرتدون الملابس بل يتأنقون في ملابسهم؛ والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل، بدءوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال؛ لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة. وهو فرض لا ينطوي على تأثير قوي جدًا في غرائزهم التي حيلوا عليها.

ويميل النظام القبلي إلى إفساح المجال لأساس أوسع نطاقًا، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أممًا، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمم إمبراطوريات، ونستطيع أن نورد كثيرًا من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له في خلال المائة سنة الأخيرة. ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو، فإن المراكز تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عددًا وأكثر انعزالًا منها قبل. وفي هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيمًا كما تكون متأثرة بصورة من صور التقيد؛ وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب. وقلّ السلب المطلق الذي لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذي قبل. وتنشأ مدارس أولية[1] كتلك

[1] «إن أول دروس الأطفال في القراءة عبارة عن مختارات من القرآن، أما التفاسير وغيرها من الكتب التي ألفت حول القرآن، فإنها تغذي الدراسات المتقدمة بموضوعات رئيسة. وقد أنشئت منذ قرون مدارس، من مختلف الدرجات، في بلاد داخلية مختلفة يمكنها الزنوج، تحب سلطة القانون؛ وفيها يتعلم الناس حتى الفقراء الذين يتعلمون على نفقة الخزانة

المدارس التي وصفها مونجو بارك Mungo Park منذ قرن مضى. حتى لو أن هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن، لكانت ذات قيمة في نفسها، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير. وقد أصبح المسجد الجيد البناء النظيف، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم، وقبلة تتجه إلى مكة وإمام وصلاة جمعة، مركز للقرية بدلًا من دار عبادة الفتش أو اليويو Juju ذات المنظر البشع.

وقد طغت عبادة الله الواحد القهار، الكائن في كل مكان، العلم، الرحيم، على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبل، طغيانًا لا حد له. وبلغت اللغة العربية، وهي اللغة التي تكتب بها دائمًا الكتب الدينية الإسلامية، حدًا يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة. وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب، بل هي أدب في ذاتها. وهي إلى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوب حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية —وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدمًا هائلًا في الحضارة.

وظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات، تلك المبادلة التي نعرف من هيرودوت أنها وجدت في إفريقية من أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق أو الروم(*)، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية في التبادل، ولكنها صناعات تنطوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظامًا محكمًا. وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر

العامة، ويتعهد فيها الأكفاء بدراسات طويلة من تعليم منظم، سنوات كثيرة. وليس نظام الدراسة فيها مقصودًا دائمًا على اللغة العربية أو على مؤلفات كتاب العرب. وقد بُسِّط عدد من اللغات القومية الكتابية، فترجمت كتب من العربية، وألفت كتب بتلك اللغات القومية، وكذلك فتحت مدارس تعلم فيها اللغات القومية».

Condition and Character of Negroes in Africa. By Theodore Dwight. (Methodist Quarterly Review, January 1869).

ويذكر الدكتور بليدن Blyden (pp. 206-7) الكتب الآتية على أنها كتب يقرؤها المسلمون في إفريقية الغربية: مقامات الحريري، وترجمات من أرسطو وأفلاطون إلى العربية، وترجمة عربية من أبقراط، والترجمة العربية العهد الجديد والمزامير التي تنشرها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية. وللوقوف على كتب المسلمين في إفريقية الشرقية انظر:

Becker: Islam in Deutsch Ostefrika, p. 18 sqq.

(*) نوع من الخمر.

استقرارًا التي جاء بها الإسلام، وهي مدن نجد أن الرحالين الأوروبيين حين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها.

وإني لبعيد عن القول بأن الدين هو العلة الوحيدة في هذا النجاح النسبي، وإنما أقول إنه ملائم لهذا النجاح ودافع إليه. وقد ساعدت الأحوال الجوية والمؤثرات الأخرى المختلفة على الوصول إلى هذه النتيجة؛ ولكن ما الذي يحمل إفريقية الوثنية، حيث توجد الظروف التي تتشابه كثيرًا مع تلك، على أن تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح؟ أما فيما يتعلق بالفرد، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين تحولوا إليه حديثًا بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر جدًا أن نجدها في مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين»[1].

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التي اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوروبا المسيحية – إنجلترا وفرنسا وألمانيا – ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير في العقلية الزنجية أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التي تساعد على تحويل عبدة الفتش الإفريقيين إلى الإسلام. ولما مست هؤلاء الثقافة الأوروبية فجأة، مضوا قدمًا في طريق الحضارة، ولكنهم، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسرًا على البرزخ الذي يفصلهم عن حكامهم الأجانب، وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم[2]؛ ولذلك، كان بعيدًا كل البعد على انتشار السيادة الأوروبية أن تعوق نشاط الدعاة المسلمين، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام.

وقد ساعد دخول الإسلام في بلاد أنهكتها من قبل حروب مهلكة أو غارات جلاب الرقيق، ثم قيام أساليب الحكم والإرادة المنظمة والزيادة في تيسير المواصلات بإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية– ساعد كل ذلك على ترويج التجارة، ومكن

---

(1) Mohammedanis in Africa, by R. Bosworth Smith. (The Nineteenth Century, December 1887, pp. 798-800).

(2) Le Chatelier, (3). P. 348.

التجار والدعاة المسلمين النشيطين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل، وأن يجولوا في الأراضي المألوفة وهم أكثر أمنًا وطمأنينة. زد على ذلك أن منع تجارة الرقيق أزال عقبة من العقبات الكبيرة في سبيل انتشار الإسلام في إفريقية الوثنية، لأنه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخي في الإسلام مع ضحاياهم الميسور صيدهم[١].

والآن يكتسب المسلمون متحولين إلى الإسلام من القبائل الوثنية التي لم يمسسها نشاط الدعوة أيام تجارة الرقيق. وقد ساعدت الحكومات الأوروبية على الوصول إلى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين في الوظائف الثانوية في الإدارة المدنية (حيث لم يكن هناك أشخاص متعلمون إلا بين المسلمين)، وبتوظيف مسلمين في مدارس الحكومة، ويجمع جيوشها من بين القبائل الإسلامية؛ وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الإسلام في نظر الإفريقيين الوثنيين – وهي فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم[٢].

وليس في القول بأن الإسلام إنما يتقدم بقوة السلاح[٣] إلا قليل جدًا من الحقيقة؛ بل الأمر على العكس، إذ أن تقسيم إفريقية بين السلطات الأوروبية، التي انتزعت السيف من أيدي الرؤساء المسلمين الذين كانوا حينذاك تحت حكمهم، قد أوجد دعاية يبدو من المحتمل أن تنجح حيث أخفقت قرون من السيادة الإسلامية.

---

[١] Forget, p. 95. Merensky, p. 156. «كانت المنفعة التي تعود على المسلمين من استغلال سكان البلاد أكثر من تلك التي كانت تعود عليهم من نشر العقيدة بينهم. فلو أنهم أدخلوا شعوب إفريقية في الإسلام عن طريق الأساليب الروحية، لأصبحوا إخوانهم في الدين، وتساووا معهم في الحقوق، ولحرمت عليهم سرقتهم واستعبادهم، أو تسخيرهم في أعمال العبيد».

[٢] Westermann, p. 643. L. de Contenson, p. 244. Kumm, p. 122.

[٣] وعلى ذلك، يقول مرنسكي، حين يناقش إخفاق الإسلام في السيطرة على جميع إفريقية بعد مضي قرون من الاحتلال «ترى أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة الغريبة في العلاقات، هو أن قوة الإسلام الظاهرية عند المسلمين، تساير انتشار الإسلام، ويقف أحدهما إلى جانب الآخر، كما أنهما متداخلان، يتمشيان معًا نهوضًا وانحطاطًا». (p. 156).